
روايات مصرية للجيب
3
الحريق
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقـــــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سفريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د.(علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د.(علاء) .. نعيش معه فى ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين

لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ـ الأيـام تمضـى ..

تصطبغ السماء باللون القرمزى معلنة أن الليـل قد لقى مصرعه فى معركته الدامية مع النهار ..

تحلق الطيـور نافضـة عنهـا النعـاس الطويـل .. وتدريجيًا تتلوّن الموجودات بلونها المعتـاد .. فيغدو الأحمر أحمر والأخضر أخضر ..

وفى إصرار ملول يدعونى جرس المنبه إلـى أن أفتح عينى ..

ترررررن ! استيقظ أيها الخامل ! ترررررن ! هلم يا كتلـة الكسل المتحركـة ! ترررررن ! تحرّك قبل أن يخربوا بيتك !

فأنهض ، وأتجه إلى المرآة لأتأكد من أننى لم أفقد عينًا أو أذنًا فى أثناء نومى ، وأضع براد الشاى على الموقد ليسخن ..

يوم آخر فى (سافارى) ..

★ ★ ★

وإن هى إلا عشر دقائق حتى تجدونى فى الممر ، المعطف الأبيض تحتـه ربطـة العنـق التـى ابتعتهـا بعشرين دولارًا منذ أسبوع ، وعلى وجهـى ملامـح الطبيب الناشط الذى فرغ من إنقاذ حياة ، أو هو ذاهب لإنقاذ حياة ..

أرسل تحياتى وأنا أندفع فى الممر .. تحيـة حـارة لهذا ، وتحية متوسطة لهذا ، وتحيـة سمجة لذاك .. ربما لا تحية على الإطلاق ..

ألقى (إبراهام ليفى) متجهًا لعيادة العيون .. يقول ى فى سماجة :

(شالوم) ، فأنظر إلى الجدار ، وأغمغم : (يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم) ..

وبالطبع أنـا لا أكرهـه لأنـه يهودى .. أكرهـه لأنـه سرائيلى ..

وتشرق (برنادت جونز) الكندية من نهاية الممر .. أشرق أنـا بدورى أو أحـاول أن أفعـل .. ويبـدو أن نظرى وأنـا (مشرق) بـادى البلاهـة ، لأنهـا تكتـم ضحكة مرحة ، وتلوّح بذراعها .

إن عملى اليوم يتلخص فى مساعدة طبيب التخدير يابانى (إيشيهارا) فى قائمة جراحات اليوم ..

قائمة مرهقة هى .. لهذا أتنهد وأنا أعرف أننى لن أتمكن من الرقاد فى فراشى قبل السادسة مساء ..

« نسيت أن أقول لكم خبرًا سارًا : »

لقد انضمَ لنا طبيب عربى منذ أربعة أيام .. تونسى شاب لم يتخصص مثلى ، ويُدعى (بسّام بوغطاس) ..

« لقد أسعدنى هذا كثيرا .. فأنا وهو نشكل حزبًا لا بأس به ضدَ كل الشقر ذوى العيون الزرقاء ، والصُفر ذوى العيون المشقوقة ، والسود الذين لا يكفون عن الكلام عن الـ (داوا) .. »

صحيح أن اختلاف لهجتينا مشكلة .. لكننا نتفاهم بالفُصحى التى يفهمها العرب جميعًا .. صحيح أنه يستعمل مصطلحات فرنسيةً عديدة .. لكن فرنسيتى لا بأس بها .. وصحيح أنه يستعمل حرف (القاف) بإفراط .. لكنى استعمل (الهمزة) بإفراط مماثل .. »

« تصوَر هذا .. أن يوجد معك شخص تحدثه عن (أم كلثوم) فلا تتسع عيناه بلاهة ، ويحدثك عن (أبو القاسم الشابى) فلا تهزَ رأسك فى غباء .. »

كان (بسام) ينتظرنى فى مسرح العمليات .

وقد فرغ من التعقيم ، وارتدى قناع الجراحة ، فلم يعد باديًا من وجهه سوى حاجبيه الكثَين وعينيه الصريحتين ..

جاء (إيشيهارا) بدوره .. وراح يتفقد أجهزة التخدير والمحاقن المعدَة لإجراء الجراحة ، وكعادته - التى لا تترك شيئًا للصدفة - راح يراجع كل شىء من قائمة مسبقة .. وهو تصرَف كان يذكرنى بالطيارين قبل إقلاع الطائرة .

جاءوا بالمريض ليرقدوه على منضدة الجراحة ، وراحوا يعدَون حقل عمل الجرَاح الذى سيصل بعد دقائق - كالكاهن الأعظم - ليشرع فى شفاء المريض ، بينما نحن نرمقه فى انبهار ..

كان المريض شيخًا أسود يعانى - على ما أظن - قرحة معديَة لم يُجد معها العلاج الطبى .. ويبدو أنه قد نزف كثيرًا جدًا فى الفترة السابقة ..

قال (إيشيهارا) وهو يفتح القناة الوريدية المثبتة فى ذراع المريض :

- « إن تخديره سيكون عسيرًا نوعًا .. مع سنه المتقدمة .. »

لكنه كان مطمئنًا .. فبراعته معروفة .. ودقته كذلك جعلته يعرف بالضبط كل شىء عن حالة قلب المريض ورئتيه وضغط دمه ، وكل هذا كان مدونًا فى القائمة أمامه .. فأنا المسئول عن ذلك بالطبع ، وقد قمت به أمس ..

وبيد ثابتة راح (إيشيهارا) يحقن (بنتوثال الصوديوم) ببطء شديد .. ثم حقن عقارًا لإرخاء العضلات .. وبدأ يجرى تنفسًا صناعيًا سريعًا للمريض ..

إن التخدير عملية مملة فى الغالب .. فما إن تراها ثلاث مرات حتى تزهدها ، وتشعر أنك رأيت كل عمليات التخدير فى العالم .. وكان عقلى ووجدانى ـ فى كل مرة ـ على الطرف الآخر من المنضدة : مع الجراح الغارق فى الدماء يحاول بمبضعه أن يصحح أو يستأصل أو يضيف .. لهذا سمعت (إيشيهارا) يصيح من بعيد .. من وراء الضباب :

ـ « الأنبوب يا (علاء) .. الأنبوب .. »

وبصعوبة عرفت أنه يوجه الكلام لى أنا بالذات ..

ـ « هه ؟ حالاً ! »

وفتحت فك المريض ، وأولجت أنبوب القصبة الهوائية فى حنجرته ما بين الحبلين الصوتيين .. هذا هو النشاط الوحيد الذى سمحوا لى بممارسته حتى هذه اللحظة .. وقد صار الأمر هينًا بعد مران .. فمشكلة الطبيب المبتدئ هى أن أنبوب القصبة الهوائية يدخل فى البلعوم دائمًا .. وأنبوب (رايل) الخاص بالمرئ يدخل القصبة الهوائية دون تردد .. أى أن الأنبوب يدخل دائمًا فى المكان الذى لا تريده !

قمت بتوصيل الأنبوب بجهاز التنفس .. وسرعان ما راح غاز (أكسيد النتروز) يتسرب إلى صدر المريض .. وراح البالون يتمدد ويرتخى بانتظام .. وهى من اللحظات السعيدة فى حياة طبيب التخدير حين يسترخى فى مقعده ، ويقول للجراح فى ثقة :

ـ « يمكنك البدء .. »

اللحظة الثانية السعيدة هى عند انتهاء الجراحة .. حين يطلق المريض سعلته الأولى ، ويرفع يده محاولاً انتزاع الأنبوب ..

يمكنك البدء ..

وعلى الفور شقَ الجراح الإيطالى الجلد الذى تلوَن بلون برتقالى بفعل المطهِّر .. وبدأ الدم ينزّ من الجرح بينما الرجل يشق العضلات ومساعداه يزيحان الأنسجة جانبًا ..

كان الجراح هو (كارلوسباتزانى) .. أنتم لم تعرفوه طبعًا .. خاصةً مع القناع وغطاء الرأس .. لكنى أؤكد لكم أنه هو .. لذا افتحوا عيونكم جيدًا .. فأنتم مقبلون على مشاهدة معزوفة موسيقية بديعة .. إنٍ من يرى (سباتزانى) وهو يعمل ، لإنسان محظوظ حقًا ..

كان يثرثر بالإيطالية مع مساعديه .. ويوجه تعليماته إلى طاقم التخدير بالإنجليزية .. وكالعادة صوته عال جهورى ، يتدفق حيوية ومرحًا .. يضحك كالمهرجين .. ويصرخ كالوحوش .. ويضرب مساعديه بكوعه كالمصارعين ..

ونظرت إلى الساعة على الجدار ..

كانت الثامنة صباحًا ..

لن أنسى هذه الساعة أبدًا ؛ لأن الحريق بدأ وقتها ..

★ ★ ★

٢ـ ما بعد الحريق ..

كان الحريق ككل حريق آخر ، يتجاوز حدود اللغة ، ويجد طريقه مباشرة إلى الإحساس الغريزى بالخطر الذى ورثه الإنسان عن أجداده .. فى البدء سمعنا صراخًا .. ثم سمعنا الخطوات المهرولة بالخارج ..

ونظرت فى عصبية إلى الباب ، وأعتقد أننى رأيت الدخان خلف النافذة الزجاجية المستديرة فى أعلاه .

ـ « فليبق كلٌّ فى مكانه ! »

قالها (سباتزانى) دون أن يرفع رأسه ، وقد لاحظ بوادر فوضى توشك أن تبدأ فى الفريق .. ثم أردف مفسرًا :

ـ « سيسيطرون على النار .. لا شأن لنا بهذا .. »

وسمعنا رنين أجهزة الإنذار ضد الحريق ، وقد وصل الدخان أخيرًا إلى أنوفنا .. ثم سمعنا صوت أجهزة الإطفاء وهى تفرغ محتواها الرغوى على النيران ..

لقد كان كل هذا قريبًا جدًا ..

رحت أتابع يدى الجرّاح الملوثتين بالدمَ وهو يواصل عملية استئصال المعدة .. وفى ذهنى رحت أفكر فيما حدث .. لا بد أنها القصة المعتادة : عَقِب لفافة تبغ فى سلة مهملات ملأى بالقطن .. أو لعله ماس كهربائى فى مكان ما ..

شىء واحد كنت متأكدًا منه : أنا لن أحترق أبدًا .. هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط .. فقط الآخرون يجدون أنفسهم محاصرين بالنيران فى غرفة بلا منفذ .. ويسعلون ويكافحون ثم يسقطون .. ويجدهم رجال الإطفاء جثثًا متفحمة ..

كان (سباتزانى) الآن عاكفًا على خياطة العضلات ببعضها .

وقال لطبيب التخدير العبارة الشهيرة :

ـ « يمكنك البدء بالإفاقة .. »

وانتزع (إيشيهارا) الشريط اللاصق عن العينين ، ثم بدأ يغلق صمام الغاز المخدّر تاركًا (الأكسجين) فقط يتسرب لرئتى المريض .. وبدأ يحقنه بالـ (نيوستجمين) كى تستعيد عضلاته قوتها ..

أما الجراح فترك الإبرة وماسكها لمساعده كى يواصل إغلاق الجلد ، قائلاً له فى تشكك :

ـ « هل يمكنك مواصلة هذا الجزء ؟ »

كان هذا المشهد يذكرنى دومًا بأسد الغابة الذى فرغ من الأجزاء الممتازة فى جسد الغزال ، ثم تنحَى عن الباقى للضباع التى تتضورَ جوعًا جواره ..

ـ « تخدير جيد .. شكرًا .. »

قالها لطبيب التخدير فهزَ هذا رأسه بما يعنى أنه يهنئه على الجراحة الجيدة كذلك .. وسرعان ما غادر (سباتزانى) غرفة العمليات ..

وكان المريض قد بدأ يتقلب ويتلوى محاولاً النهوض .

سألنى (بسام) وهو ينظر إلى خارج الغرفة :

ـ « هل أنتم معتادون على الحرائق هنا ؟ »

ـ « ليس فى الصباح المبكر .. إن هذه الأشياء تحدث على كل حال .. »

ثم أردفت وأنا أثبت محلول (الدكستروز) فى ذراع المريض :

ـ « إننى من هواة المصائب .. وهذه أول مصيبة

تحدث على بعد أمتار منى فلا أستطيع حضورها .. »

كنا قد فرغنا تمامًا .. فأعلن (إيشيهارا) أن أمامنا عشر دقائق للراحة ننتقل بعدها إلى مسرح عمليات آخر .. جراحة نسائية .

وكانت فرصة لا بأس بها لإرواء فضولنا البشرى ..

غادرت غرفة العمليات ونزعت قناعى ، وهرعت لأرى ما يحدث هنالك فى نهاية الممر ..

كانت غرفة العمليات رقم (٩) مفتوحة ، والدخان الأسود يتصاعد منها .. لكنه كان ذلك الدخان المحتضر الذى يعقب الحريق ..

وكان هناك زحام لا بأس به .. لمحت فيه المدير ـ بروفسور (بارتليه) ـ وبعض ضباط الأمن الأفارقة .. وكانت الفوضى ضاربة أطنابها كما يقولون .. فهناك الكثير من المعدات المحترقة ملقاة فى كل صوب .. والكثير جدًا من الماء .. وعدد من أنابيب الإطفاء التى فرغت فألقوها فى إهمال ..

كان (بودرجا) الممرض الكاميرونى واقفًا وسط الزحام .. فلمست كتفه فى فضول وسألته :

ـ « ماذا حدث ؟ »

ـ « حريق ! »

ولقد عودنى (بودرجا) على ردوده المشبعة المفيدة ، لهذا لم أستشط غضبًا .. وعدت أسأله :

ـ « ما هو مصدره ؟ »

ـ « لم يعرفوا بعد .. »

ـ « هل هناك ضحايا ؟ »

ـ « لا .. كانت الغرفة مغلقة .. »

كان الجوّ متوترًا بحق .. وشعرت بعدوى التوتر تسرى إلىّ .. وسمعت المدير يقول محنقًا وهو يدفن كفيه فى خِصره :

ـ « إهمال ! هذا هو كل شىء .. »

ثم نظر نحونا .. والتمعت عيناه غضبًا :

ـ « وأنتم ؟ ماذا تعملون هنا ؟ أليس لديكم عمل ؟ »

تفرق الجمع كالخراف الضالة .. ونظرت لساعتى فوجدت أن وقت الجراحة القادمة قد أزف .. يجب العودة والتعقيم من قبل أن ينسفنى (إيشيهارا) نسفًا ..

وهكذا انهمكنا فى الجراحات حتى انتصف النهار .. ولم أعد أذكر كم مريضًا شهق فى عمق وأغمض

عينيه تحت تأثير المخدَر ، ولا كم مريضًا انحنى للأمام وهو جالس كى نفرغ إبرة النخاع الشوكى فى ظهره ..

فقط أذكر أننى كنت مرهقًا بحق ..

★ ★ ★

وتجمعنا فى (الكافيتريا) متأخرين عن رفاقنا بعض الوقت فحمل كل منا صينية ، وراح يمرّ بها أمام عمال (الكافيتريا) الذين يضعون بها أشياء المفترض أنها تؤكل ..

ومشكلتى فى (سافارى) هى أننى لم أعترف قط بأنهم يقدمون لنا طعامًا .. إنه شىء عديم المذاق وبالإضافة إلى ذلك قليل جدًا ، وبالتالى هم يكتفون بإبقائنا أحياء ..

جلست إلى منضدة خاوية .. وجلس (بسّام) جوارى .. ثم جاءت (برنادت) حاملة صينية مماثلة ، وسألتنا فى لطف عما إذا كان المقعد الثالث محجوزًا ، وهى تعرف بالطبع أن أحدًا لن يجرؤ على قول إنه محجوز حتى لو كان كذلك .. فليذهب صاحب المقعد الثالث إلى الجحيم ..

قلت لها وأنا أملأ فمى بالبطاطس المقلية :

- « لا بد أنك تعرفين د. (بسام) ؟ »

تأملته فى اهتمام كأنما لم تره من قبل ، وقالت :

- « أعرفه .. لكننى لم أتعرفه إن كان هذا ما تعنيه .. »

- « إنه تونسى .. أى إنه شقيقى بشكل أو بآخر .. ويبدو لى أنه ليس ممن يحبّون الحرائق على الإطلاق .. »

ضحكت طويلاً ، ورشفت بعض المياه الغازية من كوبها ، وقالت :

- « إنه غريب الأطوار إذن ! قليلون هم الذين لا تفتنهم النيران ، خاصةً إذا ما كانوا مطمئنين على حيواتهم وممتلكاتهم .. »

- « أنت تمزحين طبعًا ؟! »

- « بالعكس .. أنا أحب النار حقًا .. وأراها كائنًا فاتنًا .. الزهرة الحمراء المسحورة التى تحيل الأحياء إلى رماد .. »

- « لم أكن أعرف أن هناك مجوسًا فى (كندا) .. »

- « لست مجوسية .. أنا فقط أجد الشعر فى أشياء غير معتادة .. وبالتأكيد كان كلامى سيختلف لو كانت هناك جثث متفحمة فى القصة .. »

قال (بسام) :

ـ « بالتأكيد لا يرى المدير وجهة نظرك هذه .. »

ـ « سيقتلنى لو سمع ما أقول .. »

وفرغنا من الطعام فى جوّ عام من المرح ، لكن اليوم لم يكن قد انتهى بعد ..

★ ★ ★

الاسم : (كولوبولامبو) ..

السن : أربعون عامًا ..

التشخيص : متلازمة فقدان المناعة المكتسب .. أو ـ إذا أردنا المزيد من التوضيح ـ الإيدز ..

سبب العدوى : دماء ملوثة ، نقلت له منذ سبعة أعوام ..

تاريخ الدخول : منذ أسبوع ..

تاريخ الخروج : يوم وفاته .. وهو ليس ببعيد على الأرجح ..

كان (كولو) معلمًا .. وكان يجيد الفرنسية .. بالإضافة لهذا كان على قدر لا بأس به من الثقافة ..

لكننى أحببت عينيه أكثر من أى شىء آخر . فهما صادقتان حساستان إلى أبعد مدى .. ثمة عيون

يمكنك أن تعتبرها نوافذ على الروح .. وكانت عينا (كولو) نافذتين واسعتين بلا مصاريع ولا زجاج يمكنك أن تكلمه ساعتين ثم تنصرف متسائلاً : ترى هل كان له شارب ؟ ترى هل هو أصلع أم أشيب الشعر ؟

مشكلة (كولو) هى أنه يموت ببطء شديد ..

ومنذ أسبوعين تفاقمت حالة فقر الدمَ لديه مما جعل إعطاء عقار الـ (زيدوفيودين) مستحيلاً ..
وعقار الـ (زيدوفيودين) لا يقتل فيروس (الإيدز) لكنه يعطله نوعًا عن أداء مهمته اللعينة .. والمشكلة هى أن المرضى يأخذون جرعات هائلة من هذا الدواء باهظ الثمن ، ودون نتيجة واضحة يمكن انتظارها فى لهفة ..

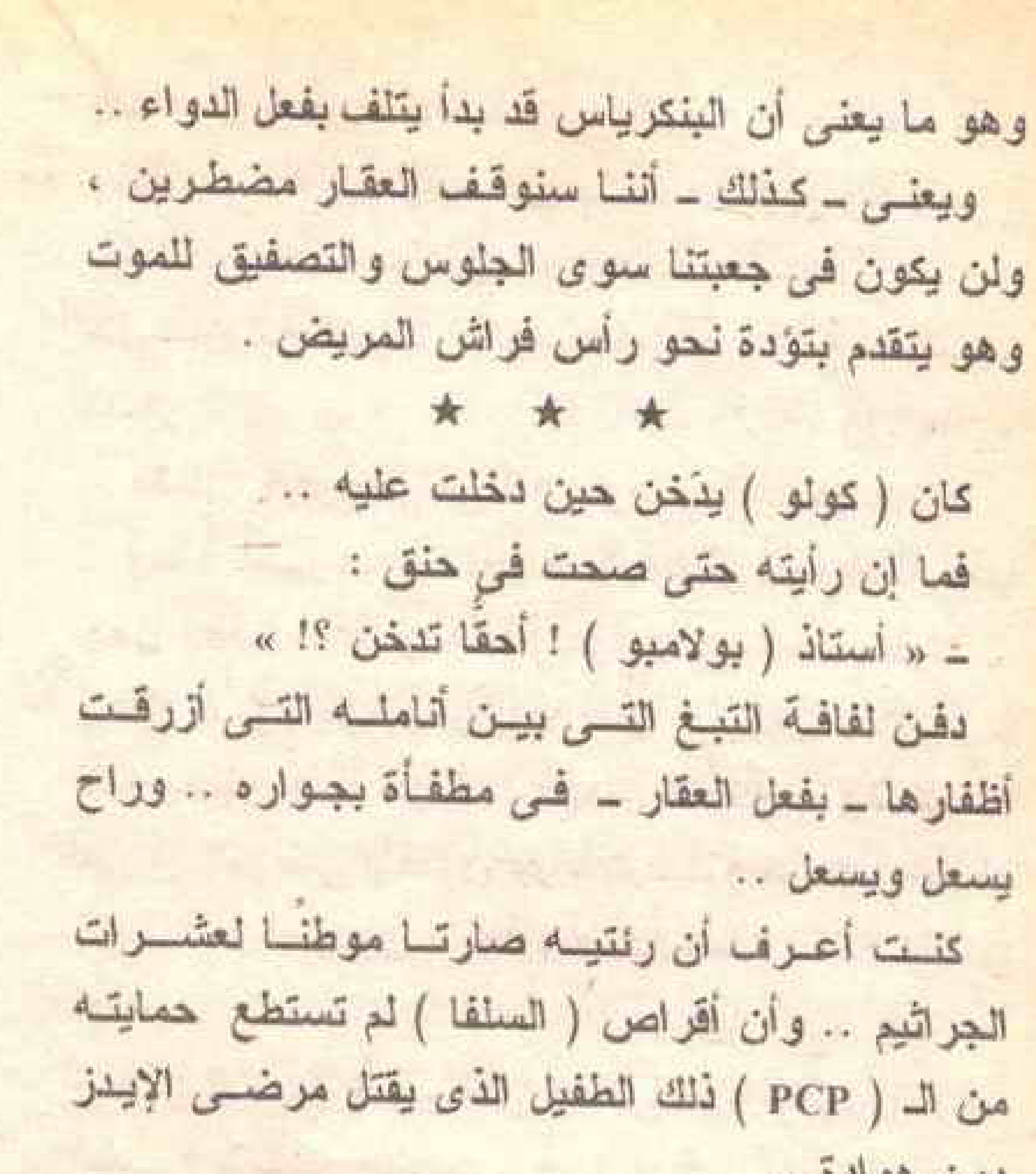
وفى الأسبوع الماضى أوصى البروفسور (آرثر شِلبى) ـ بكسر الشين ـ أن نبدأ فى إعطاء عقار (ديدانوسين) الأقل سميّة على الدم .. كل ما هنالك هو أنه يسبب التهاب بنكرياسى قاتلاً .

ولما كان حظ (كولو) سيئًا كالعادة ، فقد أظهرت تحاليل اليوم ارتفاعًا مريبًا فى إنزيم (أميليز) ..

وهو ما يعنى أن البنكرياس قد بدأ يتلف بفعل الدواء ..
ويعنـى ـ كـذلك ـ أننـا سنوقـف العقار مضطرين ، ولن يكون فى جعبتنا سوى الجلوس والتصفيق للموت وهو يتقدم بتؤدة نحو رأس فراش المريض .

★ ★ ★

كان (كولو) يدَخن حين دخلت عليه ..
فما إن رأيته حتى صحت فى حنق :
ـ « أستاذ (بولامبو) ! أحقًا تدخن ؟! »
دفن لفافة التبغ التـى بيـن أناملـه التـى أزرقـت أظفارها ـ بفعل العقار ـ فى مطفأة بجواره .. وراح يسعل ويسعل ..
كنـت أعـرف أن رئتيـه صارتـا موطنـا لعشـرات الجراثيم .. وأن أقراص (السلفا) لم تستطع حمايتـه من الـ (PCP) ذلك الطفيل الذى يقتل مرضـى الإيدز دون هوادة ..
ـ « هل جننت ؟ إن رئتيك قد ..... »
نظر لى بعينيه الصافيتين طويلاً .. ثم قال :
ـ « هل حقا يوجد فارق كبير بين تدخينى وعدمه ؟ »
لم أجد ما أقوله لوهلة ..



كان (كولو) يدخن حين دخلت عليه ..
فما إن رأيته حتى صحت فى حنق ..

الحق أن هناك قدرًا لا بأس به من الصدق فى كلامه .. هو سيموت على كل حال ـ والله أعلم ـ فلا فارق بين موته محرومًا من التبغ ، أو موته بلفافة بين أصابعه ..

لكنى طبيب .. وواجبى أن أظهر حنقى .. على الأقل لأن هذا يمنحه قدرًا من الأمل .. لا فارق هنالك ، لكنى آخر من يحقّ له إظهار ذلك .. لهذا قلت كاذبًا وأنا أنظر فى عينيه (وخير الكذب هو ما يُقال مع النظر فى العينين) :

ـ « نعم هناك فارق كبير .. لا تنس أسرتك على كل حال .. »

من جديد سألنى وهو يعيد علبة التبغ إلى الكومود بجواره :

ـ « تعنى أن هناك أملاً .. »

ـ بالتأكيد .. أمل كبير .. »

ابتسم فى لطف ، وسعل مرة أو مرتين .. ثم اعتدل ليجلس فى الفراش وراح يصحّح وضع الوسادة بيدين ناحلتين مرتجفتين .. حاولت أن أعينه ، لكنه منعنى فى لطف ..

وبتؤدة قال كأنما يلقننى درسًا :

ـ « اسمع يا دكتور .. إن فارق السن بيننا لا بد أن يغريك بسماع ما أقول .. لقد كنت أبًا سعيدًا مخلصًا لامرأتى ـ وهى حسناء قبيلتى ـ ولأطفالى .. ثم حدث ذلك الحادث ونقلوا لى ذلك الدم اللعين .. ومنذ عام واحد عرفت أننى مصاب بفيروس (الإيدز) .. عندها امتلأت سخطًا وجنونًا .. ورحت أردد : لماذا أنا بالذات ؟ قليلون جدًا أصابهم المرض وهم طاهرو الذيل .. وكنت أنا واحدًا منهم .. فلماذا أنا بالذات ؟ »

وصمت برهة ريثما يستجمع أفكاره .. وأردف :

ـ « أنا لا أخدع نفسى .. لا أحد ينجو من (الإيدز) .. أنا إنسان مقضى عليه بأن يتألم ويتألم ثم يموت فى النهاية .. وقد احتجت إلى وقت أطول مما تتوقع كى أعترف لنفسى بأن هذه هى الحقيقة .. وكى أومن أن هذا هو قدرى لحكمة عليا لن أفهمها أبدًا .. أعرف أن واجبك هو أن تمدّنى بالأمل .. ليكن .. لكنى لن أسمح لك بخداعى كما لم أسمح لنفسى بخداعى .. »

لم أجد ما أقول .. ظللت صامتًا ..

قال وهو يتحسس الأيقونة على صدره الناحل :

- « لا تقل إنك ستشفينى .. فقط قل إنك ستحاول وسعك .. »

كدت أنسى الفرنسية من قسوة الموقف .. وقلت بصوت مبحوح :

- « أعدك .. »

ابتسم .. وتناول قناع (الأوكسجين) المتدلى جواره فوضعه على أنفه ، وطلب منى أن أفتح الصمام قليلاً ففعلت ..

راح هسيس الغاز يعلو .. ورأيته يمدّ يده الحرّة إلى درج الكومود فيخرج عُلبة التبغ ويدسها فى يدى ..

رسالة صامتة من أبلغ ما يمكن ..

وغادرت حجرته مثقلاً بالشجن فى أعتى صوره ..

★ ★ ★

سألنى الطبيب المقيم الفرنسى وهو يمرّ فى الردهة :

- « تبدو مهمومًا .. ماذا هنالك ؟ »

قلت وأنا أضع يدىّ فى جيب معطفى :

- « لا شىء .. كل ما هنالك هو أننى أمقت عنابر (الإيدز) .. »

- « تخشى العدوى ؟ »

وكان كابوس العدوى قد انتهى بالنسبة لى من زمن .. فالإيدز ينتقل بصعوبة غير عادية .. وما لم يُنقل لك دم ملوّث أو يحقنك أحدهم بمحقن ملوّث فإن احتمال إصابتك واه جدًا .. وقد امتلأت ذعرًا فى بداية عملى حين وخزتنى إبرة انتزعتها من فورى من ذراع مريض (إيدز) ، وملأت الدنيا صراخًا وعويلاً وكتبت خطابات وداع لكل أقاربى ..

لكن بروفسور (بارتليه) المدير أفهمنى أن فرصة العدوى هى ثلاثة فى الألف .. قلت له إننى أعرف أننى واحد من هولاء الثلاثة .. لهذا بدءوا فى إعطائى عقار (زيدوفيودين) بشكل وقائى .. ولم استرح حتى برهنت الاختبارات المعملية على أننى لم أصب بالعدوى ..

ومن يومها تم تطبيق نظام الغطاء الواقى للإبر - الذى يجعل الوخزات احتمالاً مستحيلاً - فى (سافارى) ..

قلت للفرنسى :

- « سئمت التظاهر بعلاج مرضى لا علاج لهم .. »

- « هذا جزء دائم من عملنا .. وعلى كل حال لن يطول الأمر قبل أن يجدوا علاجًا رخيصًا فعالاً لهذا المرض .. لا تنس كيف كانوا ينظرون للدرن منذ مائة عام .. »

هززت رأسى مؤيدًا .. وواصلت مهمتى الشنيعة ..

* * *

إنها السابعة مساء وقد صار من حقى أخيرًا أن أخلد للراحة كلوح من الخشب ..

ثمان ساعات من النوم .. وهى الآن السابعة .. فلو نمت الآن لصحوت فى الثالثة فجرًا غير واجد شيئًا أفعله ..

إذن فلنحاول البقاء متيقظين ثلاث ساعات أخرى ..

واستلقيت فى الفراش أكتب بضعة خطابات .. وهى التسلية الأساسية لى كما تعلمون .. فلست من هواة سماع المذياع ، ولا من هواة الموسيقا ، ولا من هواة أى شىء يحبه الناس هنا ..

هنا طرق الباب ..

- « ادخل .. إنه مفتوح .. »

انفتح الباب ببطء وبرز لى وجه أحد العمال الأفارقة .. وبأدب قال لى : إن المدير يريدنى ..

أطلقت تنهيدة حانقة .. فهذا المدير لا يختار للقائى إلا السابعة مساءً .. مرة من أجل فيروس غامض ، ومرة ليقدم لى صيادًا كان من المرتزقة .. واليوم ماذا يريد ؟

ارتديت معطفى ورحت أحشر قدمىّ فى حذاء قماشى مريح .. ثم مشيت متثاقلاً إلى مكتب البروفسور (بارتليه) مدير وحدة (سافارى) ..

وعلى الباب قابلت (بسام) خارجًا وقد بدا كأنه فرغ من واجب ثقيل .. فسألته بالفصحى كعهدنا :

- « ماذا هنالك ؟ »

هزّ كتفيه بمعنى أن لا شىء هناك ، وقال :

- « إنه يحقق فى الحريق .. يسأل كل من كانوا فى غرف العمليات وقتها .. »

- « خلت هذه مهمة الشرطة .. »

- « لقد انصرفوا منذ ساعتين .. قالوا إن الأمر يعود لماس كهربائى .. لكنه ليس مستريحًا لتحقيقاتهم .. »

- « إنه يبالغ فى ذعره حقًا .. »

وبدورى دخلت المكتب المكيف ..

وكان (بارتليه) جالسًا وحوله ثلاثة من الرجال تبدو عليهم علامات الخطورة والصرامة .. اثنان منهم إفريقيان والثالث أوروبى ..

وكان التبغ يملأ جوّ الغرفة كأنما هو نذير بكارثة .. كالضباب الذى شهدته (بومبى) قبل أن يهلكها البركان ..

- « اجلس يا دكتور (عبد العظيم) ! »

* * *

٢ - بفعل فاعل ..

- « تفضل بالجلوس ها هنا يا د. (عبد العظيم) .. أقدم لك السادة (نسيت أسماءهم بالطبع) .. وهم يعملون فى مجال الأمن .. »

وتذكرت أحد الإفريقيين .. إنه ضابط أمن أو مدير أمن فى (سافارى) .. ولم تكن لى به علاقة تُذكر .. إنه أحد (ذوى الوجوه) الذين يأتون صباحًا حاملين وجوههم ثم ينصرفون بها مساء .. ولم تكن علاقتنا سوى علاقة (هزّ رأس) كما يقول الإنجليز ..

قال المدير وهو يحاول أن يريح كل الشحوم التى فى جسده فى مقعده :

- « أعرف أنك مُرهَق لهذا لن أطيل عليك .. لقد فهمت من زميلك التونسى أنكما كنتما فى مسرح العمليات مع البروفسور (سباتزانى) .. هل لاحظت أى شىء غير عادى ؟ »

فكرت قليلاً ثم قلت الإجابة المتوقعة :

- « لا شىء .. ظننت أنكم رأيتم كل شىء من بدايته .. »

- « هل قابلت أشخاصًا لا مكان لهم فى قسم الجراحة ؟ »

قلت فى حماس :

- « طبعًا .. قابلت د.(إبراهام ليفى) .. و ... »

ثم توقفت عن الكلام .. يسرنى أن أجلب المتاعب دائمًا لـ (ليفى) لكنى غير راغب طبعًا فى ذكر (برنادت) ..

- « لا أحد فيما عداه .. أعتقد أنه يصلح لأن يشعل حريقًا ! »

- فى برود سألنى الأوروبى الذى نسيت اسمه :

- « من تحدث عن إشعال الحرائق ها هنا ؟ »

قلت مرتبكًا :

- « ما دمتم تحققون فى الحريق ، وما دمتم تسألون عن أشخاص .. فمن المؤكد يقينًا أنكم تشكون فى وجود فاعل .. »

ولمحت الشك فى عيونهم .. فقلت بنوع من الحنق :

- « هلموا .. لسنا فى قصة بوليسية .. أنا أعرف

هذا النوع من القصص .. إننى لم أر الذى أطلق الرصاص على اللورد يا سيدى المفتش .. هنا يقول المفتش فى ذكاء : آها ! كيف عرفت أن اللورد مات رميًا بالرصاص يا سيدى ؟ نحن لم نذع هذا ولا يعرفه أحد سوى القاتل .. »

وهززت رأسى مستخفًا :

- « صدقونى يا سادة .. لسنا فى قصة من هذا النوع .. »

سألنى ضابط الأمن الإفريقى بصوت غليظ النبرات ، وبأسلوب أكثر الأفارقة فى تحويل (السين) إلى (ثاء) :

- « ألم تختف بعض الوقت قبل الجراحة الأولى ؟ »

- « نعم لم أختف .. إن (حجة غيابى) صامدة كالصخر .. »

- « ومن يملك مفتاح غرفة العمليات رقم (٩) ؟ »

- « كيف لى أن أعرف ؟ لا بد أنها الممرضة المسئولة ..

- « ظننت طبيب التخدير مسئولاً عن إعداد غرفة العمليات قبل الجراحة .. »

- « مسئول عن إعدادها لا عن تنظيفها أو الاحتفاظ بمفتاحها .. »

هنا تدخل المدير ليقول لى فى رصانة :

- « حسن يا د. (عبد العظيم) .. يمكنك أن تعود لعملك ... »

قلت وأنا أهزّ رأسى :

- « حسن .. وعلىّ ألا أغادر المدينة فى الأيام القادمة .. وأن أترك عنوانى فى الإدارة ! »

وغادرت المكان قبل أن يردّ أحد على دعابتى السمجة ..

* * *

كنت مغتاظًا ..

فهؤلاء القوم نجحوا - دونما سبب - فى إظهارى كمن يدافع عن نفسه .. وبدت عصبيتى واضحة للحظة برغم كونى شاهدًا لا غبار عليه ..

ولكن .. لماذا يشكّون فى الأمر ؟

لماذا يعتقدون أن الحريق بفعل فاعل ؟

ولفترة لا بأس بها ظللت أتأمل مروحة السقف التى تحسب أن كل دورها فى الحياة هو أن تحدث ضجيجًا ..

ظللت أتأملها .. ولا أدرى متى غلبنى النعاس .. ولا كيف ... ولم تكن العاشرة مساء قد جاءت بعد ..

* * *

فى الصباح كان علىّ أن أعاونهم فى المعمل ...

إن عملى هنا فى وحدة (سافارى) غريب حقًا .. أحيانًا أشعر بأننى مسمار يضعونه فى أية آلة ينقصها أحد مساميرها .. والسبب هو أننى لم أتخصص بعد .. لهذا أمارس كل شىء فى كل مكان ..

وأصارحكم هنا أننى أمقت المعمل بشدّة ..

إن آخر شخص يمكنه أن يرقّم أنابيب الاختبار ، ويسحب بالسحّاحة ٤ ر. ملليمتر من هذه القارورة ليضعها فى تلك ، ويغلق الحضّانة على أنابيب الاختبار المسدودة بالقطن .. آخر إنسان يصلح لهذا هو العبد لله ..

لكنى كنت مرغمًا على كل حال ..

وقابلتنى الدكتورة (هلجا) الألمانية الشمطاء التى ستكون رئيستى اليوم ، فتفحصتنى فى دقة ثم قالت لى وهى تطفئ لفافة تبغها :

- « إن لديك خبرة لا بأس بها الآن فى عمل المزارع الباكتيرية .. وليكونن هذا عملك اليوم .. »

وهكذا وجدت أننى أمام طاولة كاملة ملأى بأنابيب الاختبار ، تحوى بولاً وبرازًا ودمًا وصديدًا وبصاقًا وسائل استسقاء .. وعلىّ أن ألقح المزارع المختلفة بمسحات من هذه الأنابيب ؛ الأمر الذى لا يفتح الشهية كثيرًا كما تلاحظون ...

لكننى تذكرت (باستير) العظيم ...

(باستير) الذى كان يشفط لعاب الكلاب المسعورة بأنبوب زجاجى وبفمه ، كى يستخلص فيروس مرض (الكلب) .. وأحيانًا كان اللعاب يتسرب إلى فمه هو فيكتفى بأن يبصقه ويتذمّر ..

(باستير) لم يكن طبيبًا .. كان كيميائيًا .. أما أنا فطبيب ..

وهكذا واصلت عملى فى تفان وإن لم يكن فى حبّ ...

بعد ساعتين نظرت حولى ، فوجدت أننى وحدى فى المعمل ..

كان الجميع مشغولين بشىء ما ..

نهضت وجلست أمام جهاز الكومبيوتر الذى يدير نظام (إليزا) .. وهو شىء كنت توّاقًا له منذ زمن ..

فالشاشة تظهر رسمًا جميل الشكل يذكرك بألعاب الأطفال .. وكأنها متاهة تضىء خاناتها بالترتيب كلما تقدم الجهاز فى عمله ..

كنت منبهرًا به ، لكن الجميع كانوا يمنعونني من العبث به ، ويبدو أن الفرصة قد حانت الآن لأرى هذه المعجزة عن كثب ..

جلست أمام الشاشة أتأملها ، وأحاول فهم تلكم الرموز ، حين رأيت عليها انعكاسًا لشخص يتحرك خلفى ..

التفت بشكل غريزى لأرى من هو .. لكنه سارع بالفرار من مجال بصرى مغادرًا المعمل سريعًا ..

نهضت لألحق به .. وعلى الباب وقفت أنظر إلى الممر الخالى ..

بالتأكيد هو ليس من طاقم المعمل .. وبالتأكيد دخل بطريق الخطأ أو ليرتكب عملاً أحمق .. فالناس لا يفرّون بهذا الحماس إذا كانوا صادقى النية .. ولكن من هو ؟

كان هناك عدد من الممرضات يمشين فى الممر ويثرثرن .. وكان هناك عامل برز من باب جانبى

حاملاً مكنسة .. وكان هناك طبيب إفريقى يمسك بسماعة الهاتف ويتشاجر مع شخص ما ..

بعد قليل رأيت د. (هيلجا) عائدة إلى المعمل ومعها (برنادت) .. وكانتا تتحدثان فى حماس بإنجليزية رديئة ..

فما إن رأتنى (هيلجا) حتى احمرّت عيناها غضبًا .. وسألتنى :

- « لماذا لا تؤدى عملاً ما ؟ »
- « لم أجد أحدًا فى المعمل و ... »
- « وهذا مبرر كاف لئلا تعمل .. أليس كذلك ؟ »

لم أجد داعيًا للمناقشة خاصة أننى - ككل ذكر شرقى - أمقت أن تكون رئيستى امرأة ، خاصة إذا كانت (هيلجا) .. إن لغتها سيئة لا تسمح لها باستعمال ألفاظ فظّة .. لكن تعبيرات وجهها ونبرة صوتها هى إهانة فى حدّ ذاتها ..

قالت (برنادت) فى مرح :

- « مرحبًا (علاء) .. هل أنت سعيد فى المعمل ؟ »
- « يُخشى أن يتوقف قلبى من فرط السرور .. وأنت ؟ لماذا جئت ها هنا ؟ »

- « سرطان الدمّ طبعًا .. لدىّ بعض عينات نخاع العظام أرغب فى أن تفحصها د. (هيلجا) بذاتها .. »

قالت (هيلجا) وهى تشعل لفافة تبغ سابعة أو ثامنة :

- « إن هؤلاء الأطفال لا يكفون عن الإصابة بسرطان الدم حينما لا يجدون شيئًا أفضل يفعلونه ! »
- « الحق أنهم وقحون .. »

ودخلت المعمل وواصلت زرع السوائل الكريهة ، بينما أسمع مناقشة علمية لا بأس بها بين (هيلجا) و(برنادت) اللتين جلستا على جهاز مجهر متعدد العدسات ، وراحتا تتفحصان الخلايا التى أخذتها (برنادت) من طفل لا يجد شيئًا أفضل يفعله ..

هنا دخل أحد الفنيين الأفارقة المعمل ، واتجه إلى الفرن الموجود فى ركن المكان ليفتحه بحثًا عن شىء ما ..

ثم رأيته ينحنى ويتفحص شيئًا وجده على الأرض .. وبصوت مرتاب نادى د. (هيلجا) ..

- « ماذا عندك يا (كاليب) ؟ »

ونهضت فى اهتمام لترى ما يثير فضوله .. وقربَت رأسها ثم غمغمت :



ونهضت فى اهتمام لترى ما يثير فضوله ..
وقربّت رأسها ثم غمغمت ..

- « ما هذه ؟ قنبلة زمنية ؟ »

- « بالطبع لا .. لكنى لا أعرف ما هى .. »

نهضت بدورى لألقى نظرة .

كان الشىء الذى يمسكه (كاليب) هو ساعة .. ساعة بدائية كهربية ، تم وضع قرص خشبى وعقارب معدنية لها .. وقد تمّ لفها بالسلك إلى خرقة مبتلة سميكة ..

- .. رائحة بنزين ! إن الخرقة مشبعة به .. »

قلت وأنا أتفحص القرص الخشبى الذى كانت به قطعة معدنية بارزة :

- « الأمر واضح .. إن العقرب المعدنى سيلامس هذه القطعة المعدنية بعد ساعة من الآن .. عندها يتم إغلاق دائرة كهربية وتنبعث شرارة صغيرة .. شرارة كافية لإشعال هذه الخرقة .. سيكون ما بها من بنزين كافيًا لإحداث حريق صغير .. »

قالت (برنادت) وقد اتسعت عيناها :

- « حريق يرتبط بعقارب الساعة .. يا لها من فكرة ! »

قلت كمن ظل يعمل فى مجال المفرقعات قرونًا :

ـ « ليست عبقرية جدًا .. إنها محاولة بدائية لتقليد القنابل الموقوتة ، وعلى كل حال أنا أشك فى فعاليتها .. »

وأدرت العقرب ليلامس قطعة المعدن ..

بالفعل وجدنا شررًا كهربيًا واهيًا ينبعث باستمرار من قطعة سلك فى ظهر القرص ، توشك أن تلامس الخرقة ..

قالت (هيلجا) فى عصبية :

ـ « كفى ! لا داعى لأن تشعل حريقًا كى تبرهن على كلامك .. »

أبعدت العقرب معتذرًا .. وقلت لـ (برنادت) :

ـ « أراهن على أننى رأيت مشعل الحرائق هذا .. لقد كان ها هنا منذ دقائق .. لكنى لم ألحق به .. وأراهن ـ مرة أخرى ـ على أن حريق أمس كان بنفس الطريقة .. »

هتفت مدهوشة مبهوتة :

ـ يا للسماء ! يجب أن تبلغ المدير .. »

ـ « حتمًا .. سيطير فرحًا حين يعرف بوجود مشعل حرائق مدمن فى مستشفاه .. »

وهززت رأسى طالبًا الإذن من د. (هيلجا) ..

فنظرت لى نظرة نارية معناها بالتأكيد (فى ستين داهية) لو كان عندهم ما يماثلها فى الألمانية .. وهرعت متحمسًا إلى مكتب المدير ..

★ ★ ★

ـ « إنك تقتلنى حبورًا يا (عبد العظيم) ! »

قالها وهو يمسح العرق عن جبينه .. ويتأمل الساعة الموضوعة على مكتبه فى تقزز كما لو كانت عقربًا ..

ثم أردف وهو يدق الجرس بجواره :

ـ « لقد وجدنا مثل هذه أمس بعد الحريق .. كانت متفحمة تمامًا وقد أذابت النيران أكثر أجزائها فلم يدر أحد ما هى .. فقط شعرت بأننى أشك فى الأمر .. لم أرتح لتفسير الماس الكهربائى إياه .. وقد طلبت هؤلاء السادة الذين قابلتهم عندى أمس كى يجروا تحقيقًا .. لكنك تقدم لى الآن الدليل الحاسم على أن حدسى كان صادقًا .. لقد (شممت فأرًا) فى هذه القصة .. »

قلت وأنا استرخى فى مقعدى :

ـ « إن رائحة الفئران خير من رائحة الشياط على كل حال .. »

قال وهو يعيد ضغط الجرس :

ـ « إن هذه السكرتيرة مصابة بالصمم حتمًا .. قُل لى : ما هو الخطر من خرقة مشتعلة فى المعمل ؟ »

ـ « كانت موضوعة بجوار قوارير الكحول والإثير .. كانت ستحدث ضررًا لا بأس به قبل أن يتنبَه أحد .. »

ـ « يا للكارثة ! »

وهنا دخلت السكرتيرة الفرنسية الحسناء ، فانفجر لومًا وتقريعًا على رأسها ..

ثم قال لها بعد أن هدأ نوعًا :

ـ « اطلبى (موزينجا) حالاً .. سنجرى تحقيقًا عاجلاً .. »

* * *

٤ ـ ضابط أمن وخطابات غرامية ..

فى انتظار (موزينجا) ..

رحت أتأمل مكتب بروفسور (بارتليه) .. وكان الشعور الذى ينتابنى فى كل مرة هو الانبهار .. ليس الانبهار بالفخامة .. بل بالبساطة .. فهو مكتب صغير متواضع إلى حدَ ما .. به جهاز هاتف وجهاز (فاكس) وكمبيوتر .. ومكتبة صغيرة تحوى بعض الدوريات .. وجهاز تكييف من نوع ردىء ..

هذا هو سرّ تقدم هؤلاء القوم .. إنهم عمليون جدًا ولا يميلون إلى البهرجة دون داع .. هذا المكتب يحوى فحسب كل ما يحتاج إليه مدير وحدة (سافارى) .. ولا يحوى ذرة إضافية ..

كنت غارقًا فى خواطرى هذه حين شممت رائحة العطر الدسم الثقيل الذى يجثم على روحك ككابوس ..

ونظرت فوجدت ضابط الأمن (موزينجا) أمامى ..

كان ـ كعادة ضابط الأمن ـ متأنقًا بشدة .. لكنه

ضخم كالغوريللا مما يجعل أناقته هى أناقة الـ (بودى جارد) التى لا تخفى عضلاته القوية وشراسته .. رأسه الأصلع يلتمع .. بل كل جلده الأسود يلتمع كالأبنوس ليعطيه فخامة غير عادية ..

شرح له المدير كل شىء وعرض عليه الساعة إياها ..

قال (موزينجا) بصوته غليظ النبرات :

ـ « إن لنا حظًا غير معتاد مع صديقنا المصرى الشاب .. »

قال (بارتليه) دون أن يفهم التلميح اللعين :

ـ « إن (علاء) موجود دائمًا حيث توجد المصائب .. »

قال (موزينجا) وعيناه الصفراوان تتابعانى :

ـ « هذه المرة لم يكن هناك سواك فى المعمل ! »

قلت غير مبال به :

ـ « بالطبع .. ولا توجد (حجة غياب) .. »

ابتسم أكثر وقال :

ـ « لم تكن أنت من وجد هذه الساعة .. »

ـ « وجدها موظف فى المعمل .. أظن أن اسمه .. كا .. كا ... »

ـ (كاليب) .. إنه الكاميرونى الوحيد فى المعمل اليوم .. »

حكيت له كل شىء عن المتسلل .. وعن شكوكى .. إلخ .. على حين راح يصغى لى فى (ذكاء) وعيناه تضيقان .. كأنما الجانى قد صار فى المصيدة فلم يبق إلا أن تنغلق عليه ..

أخيرًا أمسك بالساعة ـ بمنديله ـ فوضعها فى كيس بلاستيكى ، ثم دسها فى جيبه وقال :

ـ « سأرسلها إلى (ياوندى) لرفع البصمات .. لكنى ـ لا أخفى عليك يا دكتور ـ راغب فى الحصول على بصماتك كذلك ! »

صحت محتجًا وأنا على وشك النهوض :

ـ « أنت تمزح ؟ »

ـ « أنا لا أمزح أبدًا قبل الثالثة بعد الظهر .. »

ـ « إن بصماتى تغطى هذه الساعة .. وكذا بصمات (كا .. كا ... »

ـ (كاليب) .. »

ـ « (كاليب) هذا .. و د.(هيلجا) .. وبروفسور (بارتليه) .. هذا طبيعى .. »

قال فى برود :
ـ « سنبحث فى الأجزاء الداخلية من هذه الساعة ..
ولا أخفى عليك كذلك أننى راغب فى تفتيش حجرتك ! »
نظرت للمدير محتجًا :
ـ « هل تسمع هذا الهراء يا بروفسور ؟ »
قال (بارتليه) محاولاً تهدئة الجو :
ـ « لا ضير فى هذا يا (علاء) .. إن الشكوك
تحيط بكل طاقم (سافارى) وكل مرضاها .. ولا أحسبك
تمانع فى معاونة التحقيقات على الأقل ، باستبعادك
من دائرة الشبهات .. »
قلت مغتاظًا :
ـ « وماذا يضعنى فيها أساسًا ؟ »
ـ « تواجدك دائمًا فى مسرح الجريمة .. »
قالها (موزينجا) بنفس البرود .. وهنا حمدت الله
على عدم وجود بندقية آلية معى ، لأننى كنت
سأستعملها فى غرض واحد أعرفه جيدًا ..
ـ « والدافع ؟ ألم تسمع عن شىء يُدعى الدافع ؟ »
قال (موزينجا) :
ـ « إن الدافع ليس شيئًا جوهريًا ها هنا .. فثمة

جنون يُدعى (جنون إشعال الحرائق) .. وصاحبه
لا يدرى أبدًا سبب إقدامه على ما يفعله .. لقد مررت
على العيادة النفسية صباح اليوم ، وعرفت بعض
الأشياء عن هذا الموضوع من د. (جونستون) .. »
ـ « إذن أنا مجنون حرائق ؟ »
ـ « لم أقل ذلك .. قلت إنه من الممكن أن تكون
مجنون حرائق .. »
قال بروفسور (بارتليه) بلهجة متعقلة :
ـ « لنكن واضحين .. إن من فعل هذا ـ وسيفعله ـ
لا يخرج عن اثنين .. إما هو مستفيد من تخريب
(سافارى) ـ على غرار الارهابيين وسواهم ـ وإما
هو مجنون .. »
بدا لى كلامه معقولاً .. فموضوع حرق العهدة قبل
موعد الجرد السنوى لم يصل إلى (الكاميرون) بعد
لحسن الحظ .. ثم إنه لا توجد عهدة فى غرفة
العمليات رقم (٩) ..
نهضت قائلاً لـ (موزينجا) وأنا أخرج مفتاح حجرتى
من جيبى :


قال لى وهو ينحنى بجسده الضخم تحت مكتبى ، وربطة عنقة تتدلى على الأرض ..

ـ « ليكن .. سأضغط على كرامتى وأسمح لك بتفتيش الحجرة .. »

★ ★ ★

لا يوجد شىء ..

قلت له هذا مرارًا ، لكن هذا لم يمنعه من تقليب الدرج الذى أضع فيه ملابسى الداخلية ، ومن ثنى حشية السرير التى أحتفظ بجواربى تحتها ، ومن تفتيش خزانة الثياب بعناية ..

قال لى وهو ينحنى بجسده الضخم تحت مكتبى ، وربطة عنقه تتدلى على الأرض :

ـ « إن لديك كتبًا كثيرة ها هنا يا دكتور .. »

ـ « لا أستطيع ركوب دراجتى فى غرفة كهذه كما تعلم .. إن القراءة هى التسلية الوحيدة .. »

تصفح الكتب العربية منها فى فضول ، وبالطبع لم يكن يعرف حرفًا من محتوياتها .. سألنى بصوته الغليظ :

ـ « ما مواضيع هذه الكتب ؟ »

ـ « مواضيع عادية .. كيف تشعل حرائق المستشفيات ؟

ـ مذكرات مجنون حرائق ـ تاريخ عبادة النار .. هيه ! أنا أمزح .. معذرة .. نسيت أنك لا تمزح قبل الثالثة بعد الظهر ! »

- « ظريف .. »
قالها كأنه يبصق ، وواصل التفتيش ..
وكان واضحًا له من البداية أنه لن يجد شيئًا ذا بال ..
قال وهو يعيد الكتب إلى الرفّ :
- « حسن .. لكن هذا لا يخرجك من دائرة الشبهات .. »
قلت وأنا أجلس على المكتب :
- « نصيحة .. ابحث عن الشخص الذى دخل المعمل صباح اليوم .. الشخص الذى انتهز فرصة خلو المعمل ممن به .. باختصار : الشخص الذى كان يعرف جيدًا أن المعمل سيخلو فى العاشرة صباحًا .. هذه هى بداية الخيط .. »
- « لا تحاول أن تعلمنى عملى .. »
- « حاشا لله .. لكنى أحاول أن أجد لك شيئًا آخر تفعله غير تصويب نظرات الارتياب الخطيرة جدًا إلى الناس .. »
ثم نظرت له فى تهكم قائلاً :
- « إذا كنت فرغت فأرجو أن تسمح لى .. أريد إغلاق الحجرة .. »

★ ★ ★

فرغت من البصاق فى الرابعة ظهرًا ..
معذرة .. أعنى أننى فرغت من تحليل البصاق ، فنزلت إلى الكافيتريا حيث كان (بسام) يتناول غداءه أو عشاءه لا أدرى ..
سألته عن يومه .. فقال فى تعاسة وهو يدفن وجهه فى طبقه :
- « عيادة العيون مع (إبراهام ليفى) .. »
- « فهمت .. الحرب فى غرفة مغلقة ..
- « ماذا تفعل فى مواقف مماثلة ؟ »
- « لا أدرى .. إنهم - ها هنا - يعلمون أننا سمكتان من نوع (المقاتل السياسى) يستحيل أن تتواجدا فى حوض مياه واحد .. لهذا يبعدوننا قدر الإمكان عن بعضنا .. ويبدو أنهم نسوا أنك عربى حين كلفوك بالعمل معه .. »
- « إنهم يطالبوننى بالكفّ عن هذه الصغائر .. والتعامل بمفهوم الإنسانية .. »
- « إنهم حمقى .. حفنة من المنافقين .. يملئون الدنيا صراخًا لأن الباب انغلق على إصبع أمريكى ، ثم يتركون شعبًا كاملاً كشعب (البوسنة) يباد دون أن

يحركوا أنملة .. دعك من إنسانيتهم هذه وحاول أن تشرح موقفك للبروفسور (بارتليه) ..»
وفرغت من طعامى ، فنهضت .. وقلت له إننى راغب فى المرور على عنابر (الإيدز) ..
ـ « مزاج غريب بعض الشىء .. »
ـ « إنه ليس مزاجًا .. بل هو إلى الواجب أقرب .. »

★ ★ ★

جلست جوار فراش الأستاذ (كولو) .. وكان فى حالة سيئة أكثر من المعتاد اليوم .. فقد امتلأ لسانه بفطر (الكانديدا) مما جعل الكلام عسيرًا بالنسبة له ، وهو ما لاحظته أمس ..
قال لى بلهجة عسيرة الفهم :
ـ « هل وصلتم لعلاج (الإيدز) أمس ؟ »
ـ « اقتربنا جدًا .. »
وابتسمت ..
بالطبع سيجد العلم علاجًا لهذا الداء الوبيل .. لكن (كولو) لن يكون هنا ليفيد منه .. وهو نموذج آخر جيد للموت حين يقف على رأس الفراش فلا يملك الطبيب شيئًا ..
عاد يقول لى بشىء من التردد :

ـ « هل تحفظ السرّ ؟ »
ـ « أحفظه إلى أن أفقد قدرتى على الكتمان .. »
ـ « مدّ يده تحت الوسادة ، وأخرج مظروفًا مطويًا .. وناولنى إياه قائلاً :
ـ « هذا أحضرته لى الممرضة اليوم .. تقول إنه من ساكنة الغرفة التى تعلو هذه .. »
ـ « خطاب غرامى إذن ؟ »
ـ « اقرأه بنفسك .. »
فتحت الخطاب ، وأخرجتُ ورقة معطّرة كتبت بقلم أخضر وباللغة الفرنسية .. كان المكتوب يقول :
« عزيزى ساكن الغرفة السفلى ...
لا أعرف عنك أى شىء سوى أنك رجل .. أنا هنا فى طابق آخر غير قادرة على مغادرة فراشى .. لكنى أملك روحًا قادرة على أن تتحرك وتعبر الجدران .. وقد زارت روحى روحك ..
أنا وحيدة خائفة .. وأعرف أنك وحيد خائف .. لهذا وجدت أن الحلّ الأمثل لكلينا هو أن نتبادل الخطابات .. نمنح بعضنا الأمل ونتحدث عن الزهور .. عن الأطفال .. عن رقصات (البانتو) فى ضوء القمر .. لكن ـ أرجوك ـ لا تذكر حرفًا عن مرضى ولا عن مرضك ..

لو قبلت صداقتى أرجو أن تكتب خطابًا لى وترسله مع الممرضة .. ولسوف تجد عندك خطابًا منى فى كل صباح ..

اتفقنا ؟

(إيرين ماكالستر) »

فرغت من قراءة الخطاب ، وابتسمت لأكتم تأثرى .. وقلت له ما معناه : (ماشية معاك يا عمّ) .. و ...

ـ « هأنذا بعد كل هذه الأعوامِ لم تطلب امرأة ـ ولو كانت عمشاء ـ صداقتى .. »

ـ « يجب أن تصاب بـ (الإيدز) أولاً لتكون فاتنًا .. »

قلت وأنا أطوى الخطاب :

ـ « يبدو لى الاسم انجليزيًا .. فهى ليست من مواطنيك ولا هى فرنسية ، فلماذا كتبت خطابها بالفرنسية ؟ »

ـ « لأن احتمال العثور على من يجيد الفرنسية عال .. »

ثم سألنى وهو يرشف بصعوبة بعض الماء من كوب بجواره :

ـ « ما رأيك ؟ هل أردّ ؟ »

ـ « سؤال سخيف .. لا أرى ما يمنع ، ما لم تكن

راغبًا فى كتابة عبارات بذيئة .. ولا تبدو لى من هذا الطراز .. »

ـ « إذن سأطلب منك خدمة .. أريد بعض الورق وقلمًا .. »

ـ « ليكن .. »

ـ « وأريد خدمة خاصة .. أن تصعد لغرفتها وترى كيف تبدو هذه الـ (إيرين) .. ثم تصفها لى بدقة .. »

ـ « موافق .. لكنى ظننتك متزوجًا ومخلصًا لزوجتك .. »

ضحك حتى خنقه السعال .. وقال :

ـ « مجرد فضول بشرى يا صديقى .. (كازانوفا) قال إن الرجل مهما بلغ من حيوانية لا يمكن أن يحب فتاة لم ير وجهها .. ثم إن هذا يجعل للخيال دورًا لا بأس به .. »

ـ « ليكن يا سيد (كازانوفا) .. »

ونهضت لأنصرف .. لم أر ضيرًا فى هذه التسلية البائسة لمريض على عتبة الأبدية .. على الأقل ستجعله يفكر فى شىء آخر فى الساعات أو الأيام الباقية له .. شىء بهيج ...

وقررت أن أصعد لأزور (إيرين ماكالستر) ..

★ ★ ★

٥ـ ألعاب عاطفية ..

حتى أنا شعرت بالفضول يغمرنى ..

★ ★ ★

حييت الممرضة الفلبينية الجالسة على منصة الاستقبال ، ودنوت منها لأسألها بصوت خفيض ـ كأننى أرتكب عملاً أثيمًا ـ عن غرفة المدعوة (إيرين ماكالستر) .

نظرت أمامها إلى شاشة جهاز الكمبيوتر ، وأعلنت أنها الغرفة (٣١٠) .. ثم ابتسمت لا أدرى بسبب الخبث أم ماذا .. فكل الفلبينيين يبتسمون هذه الابتسامة الخبيثة المداهنة طيلة الوقت ..

اتجهت إلى الغرفة (٣١٠) وقرعت الباب ....

إن وحدة (سافارى) مجانية فى الأساس .. لكن بروفسور (بارتليه) قد أدخل نوعًا من العلاج بأجر لمن يرغب فى الحصول على غرف مستقلة ذات حمام .. وكان هذا حال القادرين مثل (كولو) و(إيرين) هذه ..

سمعت صوتًا بالداخل يدعونى للدخول ..

ودخلت .. وأنا أبحث عن كلمات أقولها .. نسيت البحث عن حجة ما ، والحقيقة هى أننى لم أزر هذا الجناح منذ شهر كامل ..

هنا رأيت على الفراش أشنع وجه رأيته فى حياتى ..

إن (إيرين ماكالستر) ببساطة لم تعد امرأة ولا فتاة بل هى مِسخ يمكنه أن يطرد النوم من عينيك للأبد ..

لقد رأيت هذا التشويه كثيرًا .. وهو يشبه الجذام إلى حدّ ما لكن (سافارى) لا تسمح بدخول حالات الجذام .. إنه ـ كما أعتقد ـ ما يُسمَى بـ (ما بعد الكالا آزار) ويحدث نتيجة العدوى بطفيل (الليشمانيا) ..

والذى ينتقل بدوره عن طريق لدغة ذبابة الصحراء ..

وقد يأخذ مرض (الليشمانيا) صورة قرحة جلدية صغيرة كالتى نراها فى العراق ونسميها (قرحة بغداد) .. أو يتخذ شكل قرحة عدوانية تدمّر غشاء الأنف المخاطى بل والأنف كله .. كما يحدث فى (البرازيل) باسم (إسبونديا) ..

على أن مرض (الكالا آزار) ـ المرض الأسود ـ هو الصيغة الشائعة فى إفريقيا ومنطقة البحر المتوسط ..

ويأخذ صورة تضخم كبد وطحال وعقد لمفاوية .. مع فقر دم واسوداد فى لون البشرة ..

أحيانًا ـ مع بدء العلاج ـ يتخذ المرض مظهرًا شنيعًا يشبه الجذام ، هو ما نسميه (ما بعد الكالا آزار) .. لكنه يُشفى غالبًا عند اكتمال المناعة ضد المرض ..

نعم .. إن (إيرين) تعانى حالة متقدمة من (ما بعد الكالا آزار) .. ومن الواضح أن شفاءها متعسر إن لم يكن مستحيلاً ..

سألتنى فى هدوء :

ـ « من أنت ؟ »

قدمت لها نفسى بصوت حاولت أن يكون طبيعيًا .. لست من هؤلاء الأطباء الذين يطلقون صفارات الدهشة بأفواههم ، أو يسمحوا للاشمئزاز أن يتبدى على ملامحهم .. الحقيقة هى أننى لم أر حالة بهذه البشاعة إلا فى الكتب ..

قالت (إيرين) بلغتها الإنجليزية الواضحة :

ـ « هل جئت كى لا تفوتك حالة بشعة مثل حالتى ؟ »

قلت فى حرج متعمدًا ألا تفارق عيناى عينيها :

ـ « الحقيقة أننى جئت اقترض منك بعض كتب الشعر ..»

ذلك أننى كنت ـ لحسن الحظ ـ قد وجدت بعض دواوين الشعر جوار فراشها على الكومود .. لمحت عينى على كعوبها اسماء مثل (فروست) و(إليوت) و(وردسورث) .. وهى ـ بالتأكيد ـ ليست أسماء مساحيق تنظيف ..

وأنا أمقت الشعر الإنجليزى والفرنسى .. ربما أفهمه لكننى لا أستمتع به لحظة .. ولا أجد فيه إيقاعات شعرنا العربى القوية .. لكننى لم أجد حجة أفضل على كل حال ..

عادت تسألنى وعيناها على الكتب :

ـ « ومن قال لك إننى أهوى الشعر ؟»

ـ « الممرضات .. إن ثرثرتهن لا تنتهى .. »

بدا عليها الرضا لهذا التفسير .. وقالت :

ـ « غريب أن تحب ـ وأنت العربى ـ شعرًا غير مكتوب بلغتك .. لكننى مسرورة لهذا .. وأرشح لك أحد (شعراء البحيرة) .. وليكن (كيتس) مثلاً .. هل تقرأ (إليوت) ؟ لا إن (إليوت) مرهق عسير ..

يقولون إنه الرجل الذى أخذ الشعر من حياة الناس ووضعه على أعلى رفٍ فى المكتبة ، وبفضله صار الناس يمقتون الشعر ويخافونه .. خُذ (كيتس) فهو شاعر سهل محبب .. ولن تضنيك لغته كثيرًا .. »

وانتقت ديوانًا ناولتنى إياه بيدها سوداء الأظفار ..

سألتها وأنا آخذ الديوان متظاهرًا باللهفة :

ـ « شكرًا .. سأعيده لك غدًا .. من الطبيب الذى يتابع حالتك ؟ »

ـ « (آرثر شِلبى) .. هل تعرفه ؟ ومعه ثلاثة من المختصين بالأمراض الجلدية .. لكنهم عاجزون تمامًا .. »

ثم قالت فى تبسط وهى تشير إلى مقعد بجوارها :

ـ « لماذا أنت متخشب هكذا ؟ اجلس بحق السماء .. لا تخف .. إننى لا ألتهم الناس قبل منتصف الليل أبدًا .. »

وجلست .. وبدأنا نثرثر ..

★ ★ ★

مطلقة هى .. فى السادسة والثلاثين من عمرها .. معلِّمة هاجرت إلى (تنزانيا) حيث مارست مهنتها



وانتقت ديوانًا ناولتنى إياه بيدها سوداء الأظفار ..

عشر سنوات .. ثم أصابها الداء الأسود اللعين منذ
عام .. وكان هذا فى الوقت الذى انتقلت فيه لتعمل
فى (الكاميرون) ...

كانت تحب مهنتها .. وأحسست أنها قادرة على
إعطاء أفضل شىء ممكن فى قلب القارة السوداء التى
تحتاج إلى كل شىء .. وكان مثلها الأعلى هو (ألبرت
شفايتزر) ـ مثلى تمامًا ـ الذى ترك كل شىء كى
يعيش فى الأحراش يداوى السود ، ويطارد النمور
التى تفترس الماشية ..

ـ « لكن كل شىء انتهى .. وبماذا ؟ بلدغة من
ذبابة تافهة .. إن هذا يعلمك درسًا لا بأس به ..
الحياة ذاتها تافهة لا تستحق عناء المحاولة .. »

ولم ألمها فى ظروفها على هذا التفكير ..

من السهل أن أطلق الأحكام وأنا سليم معافى قادر
على رؤية وجهى فى المرآة ـ وهو ليس جميلاً ـ
دون أن أصرخ هلعًا ..

« من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر .. »

كذا قال المسيح حين طالبه الفريسيون برجم المرأة
الخاطئة .. وأنا مُفعم بالخطايا لذا لن أقذف حجرًا على
(إيرين ماكالستر) أبدًا ..

وعادت (إيرين) تسألنى :

ـ « هل تجدنى بشعة إلى الحدّ الذى أرى به نفسى ؟ »

قلت فى كياسة :

ـ « لا أجدك بشعة .. لكنى أجدك فى مرحلة
انتقالية .. كما يأتى الجنين إلى عالمنا متغضنًا قبيحًا
كقرد صغير .. وبعد أيام يمتلئ وجهه وتلتمع عيناه
ويغدو كائنًا جميلاً .. أنت جنين ينتظر أن ينمو خلال
أيام .. »

ـ « تبًا لك من منافق ! »

ثم صافحتنى .. وقالت وهى تريح ظهرها إلى
الوسادة :

ـ « الآن انصرف فأنا راغبة فى النوم .. لكن
ـ عدنى ـ ستعود إلىّ من آن لآخر كى نثرثر قليلاً ..
ستحدثنى عن نفسك وأحدثك عن نفسى وأعدك أننى
لن أقع فى حبك .. فالمسوخ ليس من حقها أن
تحبّ .. عدنى كذلك ألا تذكر حرفًا عن المرض
ولا الطب .. »

ـ « أعدك .. »

وحملت (كيتس) ـ يعلم الله ما سأفعل به ـ

وانصرفت مغـادرًا حجرتهـا .. وكنـت أعـرف أننـى سأعود مرارًا ..

★ ★ ★

ـ « إنها ملكة جمال .. »

قلتهـا فى حمـاس لـ (كولـو) .. ثم لوحـت بكتـاب (كيتس) هاتفًا :

ـ « بل وتحبَ الشعر ! لقد اعتدنا على جمال الوجه وقبح العقل أو العكس .. لكنـى ـ أوكد لك ـ لم ألق من تملك جمال الوجه والعقلَ بعد .. عزيزى (كولو) .. أنت وغد محظوظ ! »

بدا عليه حبور صبيانى .. وعاد يسألنى :

ـ « ولم تلمح لها بشىء ؟ »

ـ « مستحيل .. أنا لست ابن الأمس .. »

ـ « وماذا تعمل ؟ »

ـ « إنهـا مدرسـة .. أى أنكمـا تكدحـان فى نفس الكرمة .. إننى أرى قصة حبَ مذهلـة فى الطريق .. وإننى أرثى لزوجتك البائسة .. »

عاد يسألنى كأنما ليطمئن فؤاده :

ـ « ومم تشكو إذن ؟ »

قلت وأنا أنظر فى عينيه لتكون كذبتى فعَالة :

ـ « لا شىء .. مجرد انزلاق غضروفى يقتضيها الرقاد فى الفراش بضعة أسابيع .. »

ـ « مرحـى ! أى أنهـا لـن تغـادر المستشفى قبل وفاتى .. »

ـ « لا أحد سيسمح لك بالموت يا عزيزى .. والآن هلمَ ابدأ فى كتابة خطابك لها وإلا بدأت أنا .. »

★ ★ ★

كنت غارقًا فى هذه العواطف الميلودرامية ، حتى إننى نسيت تمامًا كل شىء عن الحريق ..

وقد عادت الذكرى إلىَ بطريقة قاسية نوعًا !

★ ★ ★

٦ - دائرة الشكوك ..

رائحة الشياط هذه !

★ ★ ★

كانت التاسعة مساءً حين عدت إلى حجرتى ، فقد أمضيت بعض الوقت فى النادى - بالطابق السفلى - ألعب الشطرنج مع هندى صموت اسمه (إيليا) يعمل فى قسم الأشعة ، وشاهدت فيلمًا سخيفًا على جهاز (الفيديو) من تلك الأفلام التى يطلق فيها الجميع الرصاص على بعضهم إلى أن يموت المخرج برصاصة طائشة ..

إن (أنجاونديرى) ليست بالمكان الذى يمكن أن يتنزه الشباب فيه ، وعامة تزرع (سافارى) فيك بذور العزلة والتوحّد .. حتى إنك تنسى - ببطء - كيف يبدو العالم الخارجى غير المسقوف ..

المهم أننى عدت لغرفتى فى التاسعة مساءً ...

كانت مفتوحة كـ (روما) بعد سقوط الفاشية ..

وهو مشهد مألوف على كل حال .. فخادمة الغرف تنسى إغلاق الأبواب من حين لآخر ، وقد اعتدت تجاهل هذا الإهمال لأنه (لا يوجد لصوص فى هذه المدينة) على رأى الأديب الكبير (جابرييل جارسيا ماركيز) ..

لكن رائحة الشياط هذه !

وهرعت افتح الباب لأجد الدخان يملأ المكان .. لكنه لم يكن خاليًا .. كانت هناك فوضى عامة ، حوالى ثلاثة أو أربعة رجال يقفون وقد حمل اثنان منهم دلوين فارغين ..

كانت المياه تغطى الأرضية ، وقد صار المشهد مرعبًا ، هو مزيج من الورق المبتلّ والرماد والماء ..

لقد احترق الفراش تقريبًا .. وتفحّم نصف المكتب .. ووجدت أوراقى قد صارت رمادًا .. بل إن - وهذا ما أثار جنونى - نصف صورة أمى التى أضعها على المكتب قد احترقت .. صورة (الحاجّة) الطيبة التى لا تكف عن الدعاء لى فى مصر ، لاسيما وهى تعدّ قهوتها اليومية ، ورائحة (الحبّهان)[*] تفوح من ثيابها وأنفاسها ..

(*) يسميه أكثر إخواننا العرب (الهيل) .

- « يا للجنون ! ماذا حدث ؟ »

وتجاوزت الواقفين ، فانزلقت قدماى فى الماء وسقطت على مؤخرتى وسط الرماد المبتلّ .. كنت أتكلم وأصرخ بالعربية ..

لقد احترق جزء من الخزانة ، وأدركت أن أكثر ثيابى قد احترق منها كُمّ أو أفسدها ثقب قبيح ..

كنت أطلق اللعنات بالعربية .. ولم أكن فى حالة تسمح لى بتذكر أن لغة الإنسان الحقيقية هى اللغة التى يلعن بها حين يغتاظ .. بالتأكيد لم أكن فى حالة تسمح لى بتذكر تصاريف الأفعال الفرنسية .. أو إلحاق حرف (S) بالفعل المضارع للمفرد الغائب فى الإنجليزية ..

وأخيرًا بدأت أميّز الواقفين .. كان أكثرهم من العمال فى (سافارى) ، وسألتهم وأنا أتحقق من الخسائر بنفسى :

- « ماذا حدث ؟ »

- « حريق فى غرفتك .. لقد رأى أحدهم الدخان .. واضطررنا إلى الدخول دون استئذان .. »

وسألنى أحدهم :

- « أتراك نسيت لفافة تبغ مشتعلة ؟ »

لم أردّ عليه لأننى وجدت ما كنت أبحث عنه جوار الفراش ..

قرص الساعة إياه وإن تفحّم تمامًا .. لكن (ماكينة) الساعة نفسها كانت بحالة تسمح بتعرفها ..

إنه ذات الأسلوب .. ذات الفاعل ..

★ ★ ★

وسمعت صوت خطوات ثقيلة ، وشممت رائحة العطر الدسم الثقيل يشق طريقه فى خيلاء بين سحب الدخان ..

كان هذا هو (موزينجا) ضابط الأمن الإفريقى ، وقد دخل الغرفة ويداه فى جيب بذلته ، وراح يتفقد المكان مقطبًا مهمومًا ..

فقلت له :

- « هأنتذا ترى المشتبه رقم واحد لديك .. لقد دمّروا كل مقتنياتى و .. رباه ! »

وهرعت إلى درج المكتب ففتحته بمفتاحى ..

كانت هناك رزمة من الدولارات - ألف وثلاثمائة دولار على وجه التحديد - فى الدرج المغلق .. ولم أحتج إلى تدقيق كثير كى أعرف أنها احترقت تقريبًا ..

النقود التى كنت سأرسلها إلى مصر غدًا ..
لم أجد كلمات أكثر أقولها فانحنيت على المكتب المحترق أبكى كمدًا ..
قال (موزينجا) بصوته الغليظ :
ـ « أرى أن الساعة إياها ها هنا .. »
ـ « هل عندك شك فى وجودها ؟ »
قال وهو يتفحص بقاياها بين أنامله :
ـ هل كنت قد أغلقت الغرفة بمفتاحك ؟ »
ـ « هذا لا قيمة له .. ففيما أعلم يستطيع كل مخلوق فى (سافارى) أن يفتح هذه الغرفة فى أى وقت يريد وبأى مفتاح .. إن هذه الأقفال يمكن فتحها بذيل سحلية لو أردت .. »
قال وهو يواصل جولته :
ـ « الواقع يا د. (عظيم) أنك مازلت المشتبه رقم واحد لدىّ .. »
ـ « هذا يدل على ذكاء خارق .. »
ـ « بالعكس .. هناك احتمالان .. الأول : هو أنك تعمدت إشعال النار فى غرفتك لإبعاد الشبهات عنك ، وهذا حين شعرت بحلقة الشكوك تضيق حولك ..

الثانى : هو أنك احتفظت فى حجرتك بواحدة من هذه القنابل الزمنية البدائية ، وكما يحدث دائمًا .. وقع خطأ ما .. واشتعلت القنبلة وهى تحت فراشك حيث لا يجب أن تشتعل .. »
قلت له متمالكًا أعصابى :
ـ « هل انتهيت ؟ »
ـ « مؤقتًا .. »
ـ « إذن اخرج من غرفتى حالاً ! »
اتجه للباب وهو يقول بتؤدة :
ـ « حسن .. لكن تذكر أنها ليست غرفتك الآن .. إنها مسرح جريمة .. وبالتالى لم تعد من حقك .. »
وغادر الغرفة ..
ووقفت وحدى وسط هذه الفوضى أفكر ..
يا للكارثة ! الحق أن موقفى سيئ للغاية .. ويزداد سوءًا فى كل دقيقة ما لم أجد حلاً ما ..

★ ★ ★

وخرجت من الغرفة باحثًا عن (بسام) فى غرفته التى تبعد عن غرفتى مسافة غرفتين أو ثلاث .. وقلت لنفسى : إنه بالتأكيد أصمّ أو نائم كالموتى ما دام لم يسمع كل هذه الضوضاء ..



ودخلت الغرفة لأجد (برنادت) حسنائى الكندية الرقيقة جالسة على الأرض ، تتمايل مع إيقاع الموسيقا ..

وكنت محقًا .. فقد وضع نفسه فى حالة أقرب إلى الصمم بتلك الموسيقا الصاخبة التى أدارها على جهاز الـ (هاى فاى) الذى يفخر به .. نسيت أن أقول ها هنا إن (بسام) مولع بالسماع .. وأنا أقول (السماع) وليس الموسيقا لأجعل الفارق واضحًا .. فأنا قد قابلت كثيرين من هؤلاء الذين لا تشعر بحبهم للموسيقا قدر افتتانهم بدرجة نقاء الصوت ووضوحه .. إنهم منبهرون بتكنولوجيا الصوت حقًا ، لكنهم لا يهتمون بما يقوله هذا الصوت ..

قرعت الباب بأطرافى الأربعة حتى استجاب وفتح لى الباب ، ومعه خرجت ألعن ضوضاء سمعتها فى حياتى .. كانت أغنية من أغانى (الراى) الجزائرية لكنى لم أميِّز حرفًا منها لعلو الصوت ..

تهلل وجهه وصرخ كى أسمعه :

ـ « مرحبًا يا (علاء) ! تفضّل .. إن (برنادت) هنا ! »

(برنادت) هنا ؟!!

ودخلت الغرفة لأجد (برنادت) حسنائى الكندية الرقيقة جالسة على الأرض ، تتمايل مع إيقاع الموسيقا الصاخبة فى حركات أشبه بـ (تفقير)

المجاذيب فى الموالد عندنا .. وكانت فى يدها اليمنى علبة مياه غازية .. واليسرى تلوح بها فى الهواء فى هيام كامل ..

فما إن رأتنى حتى تحركت شفتاها بحروف (هاى) التى لم أسمعها .. وقطبت جبينهـا بأسلوبنا الذى نسميه (تشنيكة) ..

كنت أعرف أن تقاليدنا غير سارية فى (سافارى) .. حيث يمكن أن تزور الفتاة الفتى فى غرفته والعكس .. وأعرف أن (بسَام) نقى الطرف لا يهمه سوى مستقبله الطبى .. لكنى شعرت ببحة فى حلقى .. وبتنميل فى أطرافى ..

وللحظة شعرت بأننى رجل صعيدى حار الدماء ، يوشك على صفع (برنادت) على وجهها صائحًا بالحمية المناسبة : (فاجرة) !

لكنى تمالكت نفسى .. وصحت فى أذن (بسَام) بالفصحى طبعًا :

ـ « المفترض أن هذا مستشفى لا مسبك حديد ! »

صاح بنفس الدرجة :

ـ « لا أسمع حرفًا .. إن (برنادت) تحب موسيقا

(الراى) كثيرًا .. وهذه الموسيقا لا تُسمع إلا بهذا الارتفاع .. هل تحب (دى دى) ؟ »

رفعت يدى محييًا (برنادت) ثم جذبته جذبًا خارج الغرفة ، وأغلقت الباب ثم سألته :

ـ « ماذا تفعل هذه هنا ؟ »

ـ « (برنادت) ؟ لا أدرى .. لقد جاءت غرفتى منذ ساعتين .. قالت إنها تشعر بوحدة .. وترغب فى سماع ما لدىَّ من اقراص (ليزر) .. »

ـ « لكنها لم تأت ها هنا قط ؟ »

ـ « هذا سؤال يوجَه لها لا لى .. وعلى كل حال لم أعرف أنك وضعت بطاقتك عليها .. »

صعد الدم إلى رأسى .. من الواضح أن غيرتى بدت واضحة للعيان .. لهذا هززت رأسى وآثرت الانصراف ..

صاح فى إثرى :

ـ « لِمَ لا تمضى الأمسية معنا ؟ سنستمع إلى (دى دى) بعد هذه الأغنية »

قلت دون أن أنظر للوراء :

- « لقد احترقت غرفتى .. لهذا لا أجد فى نفسى مزاجًا لسماع أى شىء سوى الرعود .. »

★ ★ ★

ورحت - وأنا انتظر مقابلة المدير - أتساءل عن البائس الذى بدأت يومى برؤية وجهه ..

الحق أنه كان يومًا أطول من اللازم وأسوأ من اللازم .. يبدأ بـ (هيلجا) وعينات البصاق .. وينتصف بـ (كيتس) و(ما بعد الكالا آزار) .. وينتهى بحريق فى غرفتى و (برنادت) فى غرفة (بسّام) ..

لم يحدث شىء .. أنا أعرف .. لكنه سيحدث بالتأكيد ..

إن (بسّام) وسيم حقًا كحصان عربى نبيل .. وثقافته الفرنسية (الفرانكفونية) تناسب (برنادت) .. فعالمهما واحد .. ثم إنها ما كانت لتزور غرفته ما لم يكن قد راق لها ..

ودخلت غرفة البروفسور (بارتليه) - الذى لا يغادر مكتبه أبدًا كما أعتقد - لأجلس أمام قدح من القهوة المركزة طلبه لى ..

قال لى وهو يضع سماعة الهاتف :

- « ثلاثة حرائق فى يومين ! إن هذا لكثير .. لقد فرغ رجال الشرطة من إجراء التحقيق ، لكنى أثق

بـ (موزينجا) .. فهو يملك غريزة كلاب الصيد ، ويعرف متى يقفو أثرًا .. »

وتنهد وقال :

- « يمكنك الانتقال إلى غرفة فى طابق آخر .. وسنصرف لك مبلغًا يمكنك من شراء ثياب جديدة .. بالطبع سنحسمه من راتبك على أقساط .. »

- « هذا كرم مبالغ فيه ! »

ثم إنه مال لينظر فى عينى من مسافة أدنى وسألنى :

- « ماذا قال لك (موزينجا) ؟ »

قلت محنقًا :

- « إن الأحمق يحسب نفسه فى إحدى حلقات (كولومبو) .. لا يوجد لديه سوى مشتبه واحد يقضى الحلقة كلها محاولاً إحكام الحصار حوله .. وهو مخطئ فى هذا .. بل نحن فى إحدى روايات (من فعلها) ؟ أو (Who dunit) التقليدية .. هناك الكثير من المشتبه فيهم .. لكن الجانى يتضح فى آخر صفحة .. »

قال وهو يلوك بعض الحلوى تناولها من علبة على مكتبه :

- « هل تحب (الكاراميل) ؟ لا ؟ ليكن .. إلا أن الجانى فى روايات (من فعلها ؟) يكون دائمًا آخر من يدور حوله الاشتباه .. »

قلت فى وقاحة لم أتعمدها :

ـ « نعم .. مثل (موزينجا) أو مثلك يا سيدى ! »

ضحك كثيرًا .. وترجرج بطنه العملاق مع كل ضحكة .. ثم قال :

ـ « لكننا لا نملك الدافع .. »

ـ « لا يوجد دافع عند مجانين إشعال الحرائق .. ألم يقل (موزينجا) ذلك ؟ »

قال وقد استعاد جديته :

ـ « لنكن عمليين يا (علاء) .. إن ضالتنا هو ذلك الشخص الذى .. »

وفتح أصابع يده المكتنزة ليعدّ عليها :

« ١ ـ الذى يملك خبرة بسيطة فى الاختراع .

« ٢ ـ الذى يستطيع فتح غرفة العمليات رقم (٩)

« ٣ ـ الذى كان يعرف أن فريق المعمل سيغادر المكان لحضور اجتماع عاجل فى العاشرة صباحًا .

« ٤ ـ الذى يستطيع فتح غرفتك دون مشاكلات .. »

أضفت أنا وقد راق لى منطقه :

« ٥ ـ والذى يهمه تدميرى بشكل خاص .. عن طريق حرقى أو طردى .. »

ثم أضفت بعد تفكير :

« ٦ ـ والذى يعرف أن (موزينجا) أبله .. »

قال وقد بدا مستريحًا لهذا :

ـ « لو وجدنا ذلك الشخص نكون قد وجدنا رجلنا .. »

ـ « إذن كان هناك اجتماع لفريق المعمل فى العاشرة صباحًا .. »

ـ « كان اجتماعًا قصيرًا بصدد عينات (الإيدز) .. وقد تمت الدعوة له بمكبرات الصوت كدأبنا .. »

ـ « إذن كان بوسع الجميع سماع الدعوة .. لكنى لم أسمعها .. »

ـ « لأنك كنت غارقًا حتى أذنيك فى مزارع البول والبراز والبصاق مما لم يترك لك فرصة للتركيز .. »

ثم عاد يسألنى فى شرود :

ـ « معنى هذا أن دائرة الاشتباه واسعة جدًا .. لكنى أريد أن أعرف أكثر عن أعدائك .. من هم ؟ »

فكرت برهة ثم قلت وأنا أرشف القهوة :

ـ « هذا يعيد (إبراهام ليفى) إلى دائرة الاشتباه ! »

هزّ رأسه نافيًا الفكرة .. وقال بإصرار :

ـ « إن علاقتكما كانت وستظل سيئة .. لكن لم يستجدّ عليها شىء يبرر لجوءه للحرائق بعد كل هذه الأعوام ..

ثم إن (إبراهام) كان فى عيادة أمراض العيون طيلة النهار لم يغادرها قط .. »

تذكرت هنا ما قاله (بسّام) .. لقد كان (بسّام) مع الإسرائيلى طيلة النهار وقضى ألعن ساعات حياته .. هذه حجة غياب لا بأس بها ..

ويمكن بسهولة إثبات أن (ليفى) لم يجد الوقت الكافى ليغادر العيادة ، كى يشعل النار فى المعمل ثم يعود ..

سألت المدير وأنا أضع القدح على المنضدة :

ـ « من هى الممرضة التى تملك مفتاح غرفة العمليات رقم (٩) ؟ »

قال وهو يتأمل الأوراق أمامه :

ـ « آه ! لقد تحرينا عن ذلك .. إنها (سيلفيا) الكندية .. رفيقة غرفة مع د. (برنادت) .. فكلتاهما كنديتان .. »

رفعت رأسى حائرًا ....

إن اسم (برنادت) يتردد أكثر من اللازم هذه الأيام ...

★ ★ ★

٧ـ هل أنتِ ؟.

تصارعت الكلمات على لسانى ...

كنت أسخر دومًا فى صغرى من عبارة (صراع العاطفة والواجب) التى تتكرر فى الأفلام العربية القديمة من عهد (توجو مزراحى) ..

لكنى لا أجد كلمة أفضل تعبّر عما يصطرع بداخلى الآن ..

★ ★ ★

سأكون صريحًا ها هنا ..

ربما كنت سأظل صامتًا فى ظروف أخرى ، لكنى وقد شعرت بنوع من الغدر من طرف (برنادت) ؛ كنت أشد استعداداً للكلام .. للانتقام .. ولم أرتب فيها حقًا لكنى ـ أعترف ـ أردت أن أذيقها بعضًا من المتاعب التى أشعر بها .. بعضًا من الألم ..

وبدأت أتكلم بصوت بطىء وعيناى لا تفارقان قدح القهوة ..

★ ★ ★

(برنادت) يا سيدى المدير تملك صفات تؤهلها كى تكون مشتبهًا فيه ممتازًا .. أعرف أنها ثابتة الجنان .. أعرف أنها مستقرة نفسيًا .. لكن (مجنون الحرائق) يبدو للناس دائمًا هادئًا رزينًا ..

(برنادت) يا سيدى المدير ظهرت فى كل مسارح الحرائق دون تبرير واضح :

١ ـ (برنادت) فى مسرح العمليات .. ولا يوجد سبب لذلك ولا تفسير .

٢ ـ (برنادت) فى المعمل :. تقول إنها جاءت لفحص بعض عينات سرطان الدمَ .. لو كانت هى الشبح الذى فرّ حين رآنى فإن أبرع حيلة للاختفاء هى أن تعود للمعمل متظاهرة بأنها جاءت لغرض ما ..

٣ ـ (برنادت) على بعد غرفتين من غرفتى .. لم تأت هناك قط .. وفجأة تجىء لتقرع باب صديقى التونسى ، وتقول إنها راغبة فى سماع الموسيقا .. لماذا هذه الليلة بالذات ؟

٤ ـ (برنادت) تعيش فى غرفة واحدة مع الممرضة الكندية التى تملك مفتاح الغرفة رقم (٩) .. من السهل عليها دومًا أن تصطنع لنفسها مفتاحًا أو تسرق المفتاح الأصلى ..

٥ ـ (برنادت) تتحدث عن النار بانبهار ..

★ ★ ★

أنا أحب النار حقًا .. وأراها كائنًا فاتنًا .. الزهرة الحمراء المسحورة التى تحيل الأحياء إلى رماد ..

★ ★ ★

أنا فقط ـ أجد الشعر فى أشياء غير معتادة .. وبالتأكيد كان كلامى سيختلف لو كانت هناك جثث متفحمة فى القصة ..

★ ★ ★

قليلون هم الذين لا تفتنهم النيران .. خاصة إذا ما كانوا مطمئنين على حيواتهم وأملاكهم ...

★ ★ ★

كان المدير يصغى لكلامى وقد بدا الاهتمام على وجهه البدين .. وحين شعر بأننى قلت جلَ ما لدىَ عاد يسألنى :

ـ « وهل لديها أسباب لتكرهك ؟ »

ـ « بالعكس .. لكن لا منطق لدى مجنون الحرائق كما تعلم .. »

ـ « وهل لديها مفتاح غرفتك ؟ »

ـ « كل غرف الأطباء المقيمين تُفتح بمفاتيح بعضها .. إن أى ذيل سحلية يصلح لفتح هذه الأقفال .. »

ابتسم للتشبيه .. ثم عاد يسألنى :

ـ « هل تملك خبرة فى الاختراعات ؟ »

ـ « لا .. لا أعتقد .. إنها عاجزة عن إعادة منفاخ جهاز الضغط إلى موضعه لو سقط منها .. لكن جهاز إشعال الحرائق هذا بسيط جدًا .. ولعلها قرأت فكرته فى مجلة ما .. »

راح يخط بقلمه على الورق كلمات ما .. ثم راح يحيطها بحلقات مفرغة لا نهاية لها ..

فى النهاية قال لى :

ـ « إن (برنادت) من خيرة أطبائنا .. وسيكون من العسير أن أوجه لها اتهامًا صريحًا .. »

صحت فى غيظ :

ـ « وأنا ؟ إن هذه الغوريللا ذات البذلة لا تكفَ عن توجيه الاتهامات الصريحة لى طيلة اليوم ! »

قال شارد الذهن :

ـ « أنت رجل .. يمكنك تحمل هذا .. أما هى فلسوف

تنفجر بكاء ، ثم تستقيل بعد عشر دقائق من اتهامها .. لا أدرى ما إذا كنت قد قرأت قصة (الآنسة) لـ (تشيكوف) .. إنها تحكى عن معلمة ريفية حساسة استقالت من عملها لمجرد أن هناك اتهامًا بالسرقة يحوم حول زملائها .. (برنادت) من هذا الطراز وستتصرف بذات الأسلوب .. »

ـ « والحلّ ؟ »

ـ « الحلّ هو مزيد من المراقبة .. وعملية تفتيش لغرفتها غدًا فى أثناء انهماكها فى عيادة الأطفال .. »

ثم هزّ رأسه دون أن يرفع عينيه إلى وجهى :

ـ « يمكنك الانصراف .. فقد كان يومك شاقًا .. قابل (ميتاموا) واطلب منه مفتاح غرفتك الجديدة .. »

ـ « وماذا سألبس فى أثناء النوم ؟ لقد احترقت مناماتى فى الـ .. »

قال فى نفاد صبر :

ـ « نم عارى الجذع يا أخى ... تصرفَ كأبطال الأفلام الأمريكية مرة واحدة فى حياتك ! »

ـ ليكن .. لكنى سأموت بالتهاب رئوى بعد أسبوع من الآن .. »

★ ★ ★



ثم أعادت وضع السماعة فى أذنيها ، وعادت تنصت إلى صدر الطفل الذى كان يصرخ كأنما هو فى الجحيم ..

المشكلة فى (أنجـاونديرى) هى أن الصباح حارٌ كجهنم .. والليل بارد كالقطب الشـمالى .. كـ كعصر الجـ .. الجليد ...

وفى الثانية صباحًا اضطررت إلى ارتداء كل ثيابى مرة واحدة والنوم بها ..

أحقًا لم يمت (جارى كوبر) و (جـون وايـن) بالالتهاب الرئوى ؟

★ ★ ★

فى الصباح كان لدىَّ جدول أعمال لا بأس به ...

علىَّ أن أنضمَّ إلى (برنادت) فى عيادة الأطفال !

كان سرورى بالغًا .. لكن تأنيب الضمير كـان بالغًا كذلـك .. خاصـة حين حيتنـى مقطبـة جبينهـا بأسـلوب (التشنيكة) الذى نعرفه فى مصر .. وقالت (هاى) ..

ثم أعادت وضـع السماعة فـى أذنيهـا ، وعـادت تنصت إلى صدر الطفل الذى كان يصرخ كأنما هو فـى الجحيم ..

تأنيب ضمير ؟

لقد قمت بواجبى .. وكان على ضميرى أن يخـرس تمامًا .. وهذا غريب حقًا .. لـو لم أتكلم أمام المدير

لأنبنى ضميرى .. وبعد أن تكلمت أنبنى ضميرى كذلك ، ولم يمنحنى لحظة راحة ..

يا له من ضمير متعنت سخيف !

كأنه زوجة مزعجة ترى أن زوجها مخطئ فى أية لحظة تراه فيها .

هنا سمعت (برنادت) تنادينى فى رقة وسط صراخ الطفل :

- « هيه ! (علاء) ! تعال اسمع هذا ! »

دسست سماعتى فى أذنى ، ولحقت بها وألصقت جرس السماعة بصدر القرد الصغير العارى ..

و ااااااااا ءء ! (عالية جدًا بفعل السماعة) ..

قلت لها فى غيظ :

- « مستحيل سماع حرف .. إن هذا الشىء يصرخ كجيش من الشياطين .. »

ابتسمت وقالت فى مرح :

- « ثمة لحظة ما بين صرخة وأخرى .. لحظة شهيق قصيرة يمكنك أن تسمع فيها ما أعنيه .. »

لكنى لم أستطع سماع شىء ..

لقد كان - هذا اللعين - قادرًا على الصراخ لمدة

عشر ساعات متواصلة دون ثانية شهيق .. كأن جهازه التنفسى لا يتطلب الشهيق أساسًا .. و اااااااء !!

قالت (برنادت) وهى تعيد الرضيع إلى أمه :

- « لقد كان صوت احتكاك فى الغشاء البلورى .. وهو ما يشى بوجود التهاب رئوى بسيط فى هذا الموضع .. للأسف أنت لم تتمكن من سماعه .. »

فى نفاد صبر قلت لها وأنا أرمق الرضيع فى غلّ :

- « أنا لا أحاول ادعاء شىء يا (برنادت) .. الحقيقة هى أننى أحبَ الجراحة ولا شىء سواها .. ولا أتمتع بذرة حبَ للطب الباطنى .. »

- « على الأقل حاول أن تكون مفيدًا لى ما دمت ها هنا .. »

وهكذا مرَت الساعات .. لكنى لم أكف عن تصور عمليةَ تفتيش حجرتها الآن .. إن قدمى (موزينجا) الغليظتين تخطوان بتؤدة فوق (الموكيت) الوردى الذى طالما افتخرت به (برنادت) ...

ترى ماذا سيجد ؟

★ ★ ★

عند الواحدة ظهرًا دوّت الصفارة إياها ، ثم سمعنا صوت المذيعة إياها يردّد بالفرنسية :

ـ « د. (برنادت جونـز) تتوجه فورًا إلى مكتب المدير .. »

قالت فى ملل وهى تنزع السماعة عن عنقها وتضعها على المكتب :

ـ « أف ! ثمة كارثة ما .. هلاّ توليت فحص هذه الحالة ريثما أرى ما ينتظرنى ؟ »

للحظة شعرت بحاجة ملحة للاعتراف .. أو لأصرّ على الذهاب معها .. لكننى أحجمت .. لا أريد أن تتناثر كلمة ما عن كونى صاحب الشكوك فيها ..

قلت لها وأنا أضع السماعة فى أذنى :

ـ « اذهبى إذن واطمئنى .. »

وشعرت بالضبط بشعورى يوم لم أجد اسمى فى قائمة الناجحين فى الثانوية العامة .. الشعور بأننى واهن ضعيف وأننى أتنفس بعسر .. وإننى موشك على فقدان الوعى ..

قلت لنفسى : (علاء) يا صديقى .. أنت أكثر جبنًا مما تصورت .. هأنتذا لا تجرؤ على مواجهة مسئولية

ما قلت للمدير .. هأنتذا تلعب دور الثعبان الواشى الذى ينثر سمّه دون أن يواجه أحدًا ..

هأنتذا تؤذى هذه الفتاة ثم تجلس معها تتعلم على يديها .. وتمزح متظاهرًا بأن شيئًا لم يكن ..

يجب أن تقرر يا (علاء) ..

هل تراك قمت بوشاية حقيرة ؟ أم تراك قمت بعمل إيجابى لصالح المستشفى ومن فيها ؟

إن كانت الأخيرة فعلام تتكتّم ، ولا تواجه الأمور بشجاعة ؟

علام هذا التخاذل والضعف ؟

لو كان ما فعلت صوابًا فلتفخر به .. ولو كان خطأً فلتعلن ذلك سائلاً المغفرة ..

صراع ! هذا هو أدق وصف لما كنت أشعر به ..

★ ★ ★

إن هى إلا دقائق حتى حدثت الكارثة ..

ـ « د.(علاء عبد العظيم) يتوجه فورًا إلى مكتب المدير ! »

دوّى الصوت الموسيقى فارتجف قلبى ..

إن (بارتليه) ـ عليه اللعنة ـ لم يستطع أن يخرس ..

وهو ذا يريدنى فى مكتبه لإجراء نوع من (المواجهة) ..
يريد أن تسمع (برنادت) شكوكى من فمى .. تبًّا !
لماذا لا تنشق الأرض وتبتلعنا حين نتمنى ذلك ؟

لماذا لا نملك القدرة على التلاشى ؟

وتوجهت ـ كالمحكوم عليه بالإعدام ـ إلى مكتب المدير ..

فما إن دخلت حتى وجدت ذلك الحشد من الأشخاص المهمين الذى أكد لى أن الأمر خطير .. ثم رائحة العطر الدسم إياها ..

كانت (برنادت) جالسة على مقعد ، وقد أغرقت فى البكاء وشعرها يغطى عينيها .. فما إن رأتنى حتى صاحت فى لهفة :

ـ « تعال يا (علاء) وقل شيئًا لهؤلاء المخابيل .. »

الحمد لله ! ما زال سرى مصونًا ..

سألتها دون حماس :

ـ « مـ .. ماذا حدث ؟ »

قال (موزينجا) وهو واقف بجوارها ، بصوته الغليظ :

ـ « أعتقد أنك تعرف هذه الأشياء يا د. (علاء) .. »

قالها وأشار إلى علبة على مكتب المدير .. علبة فى حجم صندوق الأحذية ملأى بأشياء لم أتبينها فى البدء .. فلما دنوت أدركت أنها (ماكينات) ساعات من التى تعمل بالبطاريات الجافة .. عدد هائل منها والحقُ يقال ..

لكنى ما زالت لا أفهم ..

قال (موزينجا) وهو يفوح بالعطر تعبيرًا عن حماسه :

ـ « هذه الأشياء وجدناها تحت فراش الآنسة .. وأعتقد أنك تذكرها جيدًا لأنك وجدت مثلها فى المعمل أمس ! »

نظرت إلى عينيه الصفراوين ..

ونظرت إلى العلبة .

ونظرت إلى (برنادت) ..

فعلت كل هذا بغباء حقيقى !

★ ★ ★

٨ - المتهمة ..

إلا أن الجانى فى روايات (من فعلها ؟) يكون دائمًا آخر من يدور حوله الاشتباه ...

★ ★ ★

هل تحب (الكاراميل) ؟

★ ★ ★

هل تحب (دى دى) ؟

★ ★ ★

لم أشأ فى البدء إظهار عدم تصديقى لأن هذا سيدفع المدير إلى أن يذكرنى بحديث البارحة .. لهذا اخترت كلماتى بعناية ، وتوجهت بلهجة لائمة إلى (برنادت) :

ـ « أحقًا أنتِ يا (برنادت) ؟ »

هتفت بدموع جامدة فى عينيها :

ـ « هل تصدق ذلك ؟ »

ـ « وهذه الأشياء ؟ »

ـ « سلهم عنها .. فهُم من دسّها لى فى حجرتى .. »

سألها (موزينجا) فى هدوء :

ـ « معنى هذا أنك لا تملكين أية فكرة عن هذه الأجهزة »

ـ « بالتأكيد ! »

ساد الصمت برهة .. ثم تكلّم المدير ..

كان فى العادة يفتقر إلى الحزم ، لكنه فى هذه المرّة كان قد اكتسب جديّة بحكم الموقف .. ولم يكن بوسعه أن يتساهل أو يغفر .. خاصة أمام كل هؤلاء .. ومع كل العطر الدسم الذى يضعه (موزينجا) ..

قال فى تؤدة دون أن ينهض عن مكتبه :

ـ « إن لـد.(برنادت) أيادى بيضاء على (سافارى) .. وتقديرًا لهذا كله لن أجرى تحقيقًا أو أبلغ الشرطة الكاميرونية .. لكنى أتوقع منها استقالة خلال ثلاث ساعات من الآن ! »

هنا فقدت حذرى .. وصحت :

ـ « لكن هذا ظلم ! (برنادت) لن تفعل هذا ! »

نظر لى نظرة طويلة ذات معنى .. كأنه يقول لى : أيها الكاذب المنافق !

ثم قال بنفس التؤدة :

ـ « أنا لا أريد أن أفتح مواضيع تثير الحرج يا د.(علاء) .. لهذا أوصيك صادقًا أن تلزم الصمت .. وعلى كل حال أنت لا تتولى إدارة هذه الوحدة .. أنا أفعل ! »

ثم نظر إلى أوراقه .. وغمغم :

ـ « انصراف ! »

ونهضت (برنادت) جريحة الروح .. لكنها احتفظت بكبريائها ، فلم تفكر لحظة فى أن تتوسل .. بجَرة قلم انتهت ستة أعوام من عمرها كانت فيها من أنشط وأكفأ أطباء (سافارى) .. لكنها لم تتوسَل ..

وخطر لى هنا مدى فظاعة أن تكون بريئة ..

عندها تكون المصيبة قد هبطت عليها من سماء صافية .. منذ ساعة كانت تضحك وتمرح فى عيادة الأطفال .. والآن هى مطرودة مطعونة فى شرفها وسلامة عقلها ..

لو كانت مظلومة .. فبئس الظلم !

ـ « د.(علاء) ! »

قالها المدير إذ هممت بالانصراف ، فاستدرت متسائلاً فأردف :

ـ « هل يمكنك استكمال العمل فى عيادة الأطفال ؟ »

ـ « لست أفضل من يفعل ذلك .. لكنى سأحاول يا سيدى .. »

وانصرفت بدورى كاسف البال ..

★ ★ ★

توجهت إلى عنابر (الإيدز) لأرى (كولو) ..

كنت فى حاجة شديدة إلى شىء واحد .. شىء واحد يجعلنى أحبَ نفسى واحترمها .. وكان (كولو) يصلح ..

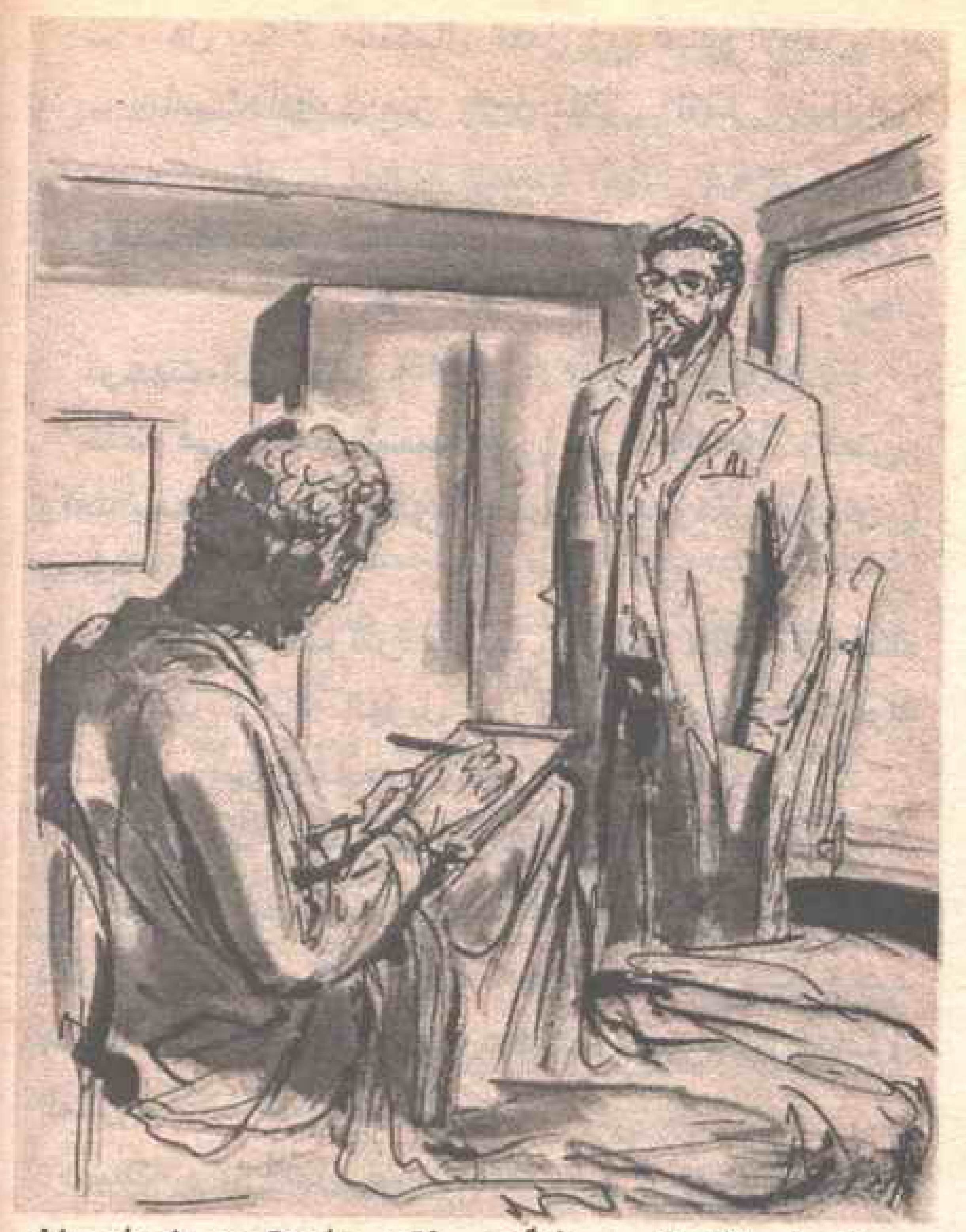
وجدته فى الفراش جالسًا .. ذقنه حليقة وعيناه تلتمعان فى وجهه الهزيل .. وكان على ركبتيه (بلوك نوت) ، وبين أصابعه زرقاء الأظفار قلم أخضر ..

وأدركت أنه يكتب خطابًا آخر لـ (إيرين) ..

كانت الشمس تدخل من النافذة وتفترش سريره فى دلال وكسل .. ولأول مرة شعرت بأن الرجل وجد هدفًا لحياته .. لقد كف عن التدخين سرًا وتقول الممرضة إنه لم يبك أمس ..

سألته وأنا أتأمل خارطة العلامات الحيوية :

ـ « هل الخطابات على ما يُرام ؟ »



وجدته في الفراش جالسًا .. ذقنه حليقة وعيناه تلمعان في وجهه الهزيل ..

ـ « جدًا .. إننى أكتب ثلاثة خطابات يوميًا .. وهى تردَ علىَ بثلاثة خطابات أخرى .. »

ـ « يا للهول ! » ـ وصفرت بفمى ـ « أليس الكلام فى الهاتف أسهل ؟ »

قال فى شرود هائم :

ـ « بالعكس .. لا شىء كالكتابة يقودك مباشرة إلى الروح .. إن الصوت قد يكذب وقد يحبط الخيال .. لكن الكتابة تفتح عالمًا براقًا هائلاً من السحر والرومانسية .. »

فكرت فى وجه (إيرين) المتآكل وصوتها المبحوح ، وقلت لنفسى : إنه لا شىء كالكتابة يدارى القبح والواقع القاسى فعلاً ..

لا بأس بما قمت به .. لا بأس أبدًا ..

سيموت (كولو) ذات ليلة .. ربما بسرطان (كابوزى) أو انثقاب القولون أو بالتهاب فى المخ .. لكنه سيموت سعيدًا ..

★ ★ ★

وصعدت إلى الغرفة (٣١٠) لأرى (إيرين مكالستر) .. كنت أحمل فى يدى ديوان (كيتس) إياه .. فما إن رأتنى حتى هتفت فى مرح :

- « هل قرأته كله فى ليلة واحدة ؟ »

بالطبع لم أكن قد فتحت الديوان أصلاً .. لكننى قلت كاذبًا :

- « بالطبع .. إن الشعر لا يُقرأ .. لكنه يتسرب إلى الروح مباشرة .. »

- « هل أحببت (وعاء الريحان) ؟ وما رأيك فى (ليلة سانت آجنس) ؟ »

كنت أعرف هذه (الكمائن الثقافية) .. مثلما تسأل الفتاة خطيبها عما إذا كان يحب السيمفونية العاشرة لـ (بيتهوفن) .. فيجيبها كالثور أنه يحبها .. عندئذ تعلن فى انتصار أن (بيتهوفن) لم يكتب سوى تسع سيمفونيات .. فمن أدرانى أن فى ديوان (كيتس) قصيدتين بهذين الاسمين ؟ لذا آثرت الردود المحايدة :

- « أنا لا أذكر أسماء القصائد لكنى أحببتها كلها(*) .. »

- « هذه المرة سأختار لك ديوانًا لـ (شيلى) .. »

سألتها بحذر محاولاً جعلها تثرثر أكثر :

(*) هاتان - بالفعل - قصيدتان محبوبتان لـ (كيتس) .

- « هل هوايتك الوحيدة هى القراءة ؟ ألا تكتبين أحيانًا ؟ »

- « خطابات لا أكثر .. أحيانًا أراسل المرضى الآخرين .. »

بحذر أكثر سألتها :

- « فى الغرف المجاورة ؟ »

ابتسمت ابتسامة ذات معنى .. وسألتنى بدورها :

- « قل لى .. هل تعرف نزيل الغرفة التى تقع تحت هذه ؟ »

- « بالتأكيد .. إنه رجل وسيم راقى الذوق .. »

- « مم يشكو ؟ إن الممرضات يرفضن إفشاء هذه الأسرار .. »

أخذت شهيقًا عميقًا وقلت وأنا أنظر فى عينيها :

- « إنه مصاب بانزلاق غضروفى يرغمه على الرقاد فى الفراش لفترة طويلة جدًا .. لكنه سيكون فى أفضل حال ... »

قالت على الفور :

- « لا أريد أن يرانى أبدًا ! »

- « فى الغالب ستشفين تمامًا قبل أن يقف هو على قدميه .. »

ثم عدت أسألها :

ـ « لم أفهم بعد سرّ عجزك عن المشى .. »

ـ « لم يجد الأطباء لذلك سببًا .. يقولون إنه عجز نفسى أحاول به أن أفرّ من مواجهة العالم بهذا الوجه ... »

ـ « أنت تعقدين الأمور .. »

قلتها ومددت يدى إلى كتاب (شيلى) عازمًا على أن أقرأ اسم قصيدة أو اثنتين كى أجتاز امتحان الغد بأمان ..

وودعتها وانصرفت ..

★ ★ ★

للمرة الأولى فى حياتى أطرق باب غرفة (برنادت) ...

ـ « ادخل ! »

دوّى صوتها .. ففتحت الباب متوجسًا ..

كانت واقفة أمام الفراش ، وأمامها أربع حقائب مفتوحة راحت تدسّ متعلقاتها فيها .. فما إن رأتنى حتى شهقت من أنفها لتمنع دمعة من أن تسيل عبره ..

قالت :

ـ « هذا أنت يا (علاء) .. تفضّل .. »

سألتها بصوت مبحوح :

ـ « بهذه السرعة ؟ »

ـ « إننى أرجو أن أكون فى (مونتريال) بعد غد .. لقد قدمت استقالتى منذ ساعة للبروفسور (بارتليه) وقبلها .. »

ـ « (برنادت) ! »

ـ « هم م م ؟ »

ـ « لا ترحلى .. إننى .... »

وانفجرتُ فى البكاء ـ لاحظ التاء المضمومة فى الفعل ـ كطفلة ضلّت طريقها إلى بيتها .. لم أدر قط أننى أملك كل هذه الدموع .. وأننى يمكن أن أجرؤ على البكاء أمام فتاة .. ولحسن الحظ ضاعت كلمة (أحبك بجنون) وسط العبرات فلم تسمعها هى ..

كانت هناك بجوارى .. تجفف دموعى بملاءة السرير ، وتقول كلامًا فارغًا كثيرًا عن تقديرها لى ، وشعورها بالراحة حين تعمل معى ..

ووسط كل هذا البكاء وجدت كلمة واحدة طريقها إلى حلقى :

- « (بسام) ! »
- « ماذا ؟ »
- « لماذا زرت غرفته أمس ؟ »

قالت فى هدوء وهى تعيد الملاءة إلى مكانها :

- « كنت أشعر بالوحدة .. وطرقت بابك أولاً فلم أجدك وكان الباب موصدًا لهذا قرعت بابه .. لم تكن هناك أية صديقة لى فى تلك الساعة .. وقد سئمت (الكافيتريا) .. »
- « أحقًا ؟ أى أنك جئت باحثة عنى أولاً ؟ »
- « طبعًا .. ألست الصديق الأقدم ؟ »

وأردفت بعد قليل :

ثم إننى سئمت تلك الإنجليزية اللعينة (إيرين) .. »

نظرت لها مشدوهًا .. ثم سألتها :

- « تعرفين (إيرين) ؟ »
- « ومن لا يعرفها ؟ إنها تهوى إثارة شفقة الناس .. وتجعل من مشكلتها مشكلة الآخرين دومًا .. لقد اعتدت زيارتها ساعة فى كل يوم .. ثم لاحظت أنها تحاول امتصاص وجودى ذاته .. »

ثم أردفت وهى تواصل إعداد حقائبها :

- « لديها جيش كامل من الخدم المتطوعين ..

ممرضة تحمل خطاباتها .. وطبيبة تأتيها بالورق .. وعاملة تجلب لها خلسة ما لا يسمح به المستشفى .. والجميع يعمل بوازع الشفقة .. »

ثم سألتنى فى سخرية مريرة :

- « يبدو أنك صرت من (حريمها) أنت الآخر .. »
- « ربما ... »

وفى النهاية لخصت (برنادت) موقفها فى كلمات بسيطة :

- « أنا لم أفعل شيئًا .. إنهم يتهموننى بشىء لا أدرك تفاصيله لكنه مشين .. وكل ما أعرفه هو أننى ضحية ألعوبة قذرة ، وأن الأدلة فى حقى دامغة ولا سبيل للدفاع .. لهذا أعلن - فى كبرياء - أننى لا أرغب فى المهاترات .. سأرحل وأنا أحتقر كل هؤلاء .. كملكة ذاهبة إلى المقصلة وهى ترمق تهليل الرعاع فى تعال .. هذا هو انتصارى الوحيد على (سافارى) .. »

ثم أضافت وهى تنظر فى عينى مناشدة :

- « حين تغادر هذه الغرفة لا تقل لأحد إنك رأيت دمعة فى عينى .. فهذا سيهدم شعورى بالنصر .. »

قلت بصوت مبحوح كأننى سحلية مذبوحة :
- « لم أر دموعًا ها هنا سوى دموعى .. »
- « ثق بأننى لن أفضح سرك هذا .. »

★ ★ ★

وجاء المساء ..
كنت فى حجرتى الجديدة أحاول كتابة خطاب لأمى .. لكنى لم أستطع .. فمزاجى المعتلّ جعلنى أكتب أسوأ خطاب كتبته فى حياتى ، وكان لا بد من تمزيقه ..
خُيل إلىّ أننى أسمع صراخًا ..
بعد ثوان تأكدت من أننى لا أتخيّل ..
كان هناك من يصرخ فى الجناح الآخر الواقع فى الضلع الطويل من حرف (L) ..
أى - بعبارة أخرى - عند عنابر مرضى (الإيدز) ..

★ ★ ★

٩ - من فعلها حقًّا ..

النار .. النار !
تسمعها بالإنجليزية .. بالفرنسية .. بالـ (بانتويد) .. تسمعها بغريزتك .

★ ★ ★

تهرع كالمحموم إلى هناك .. لحسن الحظ أنك تنام بثيابك الكاملة لأنك لم تبتع منامة بعد ..
وترى الدخان يخرج من غرفة ما .. وألسنة اللهب تندلع من الباب .. وبصعوبة تصدق أن هذه غرفة .. غرفة (كولو) .. المدرس !
خمسة رجال يقفون على الباب يتصايحون لكنهم لا يجسرون على الدخول .. وبعسر تصدّق حقيقة أن (كولو) يحترق فى هذه اللحظات ..
عندها تفقد أعصابك .. تفقدها إلى حدّ الحماقة ..
تصرخ فى أحد الرجال كى يسكب عليك ماء الدلو الذى يحمله .. ثم تصرخ فى رجل آخر كى يفتح



ثم انهض .. وحاول أن تحمل الجسد الذى على الفراش بعيدًا .. بعيدًا .. بعيدًا ..

صمام مطفأة الحريق فى وجهك .. تغمض عينيك بينما السائل الرغوى يغرق وجهك وجسدك ..

أعرف أنهم فى الأفلام يستعملون بطانية .. لكنى لم أدر قط ما يفعلون بها .. كما أننى - بعد كل هذه الدراسة الطبية .. لم أفهم لماذا يغلون الماء عند الولادة فى الأفلام .. إن هناك أشياء بلا تفسير فى هذا العالم ..

وتخترق سحب الدخان الكثيفة على الباب ..

لم يكن الأمر عسيرًا بالداخل .. فاللهب مشتعل فى الفراش والبساط .. لكنه لم يتحول بعد إلى جدار يستحيل اختراقه ..

ثمة جسد على الفراش .. و .....

لا تخف .. أنت لن تموت بالنار .. تذكر أن من يموتون فى الحرائق يموتون بالصدمة العصبية أو الاختناق أو الأجسام الساقطة فوق الرأس ..

انحن على الأرض .. استنشق بعض الهواء النقى الذى يظل دائمًا فى مستوى منخفض .. ثم انهض .. وحاول أن تحمل الجسد الذى على الفراش بعيدًا .. بعيدًا .. بعيدًا ..

أين ذهب هذا الباب ؟ أين ؟

أخيرًا .. أنت بالخارج .. الهواء النقى نوعًا ..

بصعوبة تدرك أن النار قد أمسكت بلحيتك ، وأن الواقفين يضربون على ظهرك محاولين إطفاء جذوات عدّة ..

تُريح (كولو) على الأرض .. وتتأمل وجهه الأسود الضامر .. وتدرك أن السرّ الإلهى .. الشىء الغامض الذى يجعل هذا اللحم يفكر ويتحرك .. هذا السرّ قد ترك الجسد ورحل ..

لم يعد (كولو) سوى قطعة من اللحم الرخو .. ولكن شبح ابتسامته ما زال على شفتيه .. ولم يكن هناك أثر للحروق فى أى جزء من جسده .. وتسمع الممرضة تقول بصوت كالصراخ :

- « مات فى أثناء نومه ! خنقته الغازات وهو تحت تأثير القرص المنوّم ! »

« حسن .. على الأقل هو لم يتعذّب ..

لقد جاءه الموت فى صورة أخرى أكثر رحمة من صورة فيروس (الإيدز) المخاتل القاسى .. ولم يدر قط أنه مات ..

وسمعت من يقول لى إننى شجاع حقًا .. شجاع ؟

ربما كان ما فعلته إلى الجنون أقرب .. لكنه لم يكن ذا جدوى ..

وسمعت من يقول لى إن المدير يريدنى ..

فمتى لم يردنى المدير ؟

★ ★ ★

قال لى (بارتليه) وهو يمشى معى إلى مكتبه (وكانوا قد استدعوه من مسكنه الذى يقع قريبًا من هنا) :

- « هذه هى الضحية الأولى يا (علاء) .. ولم يعد أمامى مفرّ من إغلاق وحدة (سافارى) لأجل غير مسمّى .. »

قلت له لاهثًا وأنا ارتجف من البلل :

- لكن الفاعل سينتظر حتى تفتتحوها من جديد ليواصل عمله .. »

قال وهو يولج مفتاحه فى باب الغرفة :

- « أراك استبعدت (برنادت) تمامًا من شكوكك .. »

قلت له :

- « الحق أنها لم تقض ثانية واحدة وحدها بعد مغادرتها مكتبك .. فالكلّ جاءوا لتوديعها .. »

- « أى أنها لم تجد الفرصة لإشعال حريق آخر .. »

سألته وأنا أتبعه إلى الغرفة المظلمة :

ـ « وأين (موزينجا) ؟ لا بد أنه مشغول فى دهان جسده بالسمن لتكون له رائحة ذلك العطر الدسم .. »

ترقرق الضوء النيون مرتين ثم غمر المكتب .. الضوء البارد المحايد .. جلس وراء مكتبه ، وتنهد .. وأدركت أنه لم يتخلص من جو البيت بعد .. قال لى :

ـ « كنت شجاعًا .. لكن أية شجاعة لم تكن بقادرة على إنقاذ الرجل .. هل تعرفه ؟ »

ـ « لقد كان صديقى .. »

ـ « لقد اختار من أشعل النار وقتًا مناسبًا جدًا .. فمن الواضح أن المريض لم يكن قادرًا على النوم دون دواء منوّم .. وحين يتعاطاه يغدو إلى الموتى أقرب .. »

ثم سألنى فى شرود :

ـ « هل لديك اقتراحات ما ؟ »

ـ « (برنادت) لم تفعلها .. »

ـ « أعتقد أن هذا صار واضحًا .. والآن نحن بحاجة إلى العثور على شخص آخر تنطبق عليه نقاطنا الست .. وأضيف إليها نقطة سابعة تشترط أن يكون الفاعل كارهًا لـ (برنادت) ، قادرًا على دخول غرفتها .. »

ثم أردف وقد تذكر :

ـ « لن تكون لهذا أهمية على العموم .. لأننى سأغلق الوحدة غدًا .. »

ـ « أهذا قرار أخير ؟ »

ـ « بالتأكيد إن القبض على مجرم لأقل أهمية من إنقاذ مئات الأبرياء من الأفارقة والأوروبيين والآسيويين والأمريكان .. »

هنا قلت وقد تذكرت شيئًا آخر :

ـ « ثمة نقطة ثامنة : يجب على من أشعل الحريق أن يكون ملمًا بمواعيد نوم (كولو) والعلاج الذى يتعاطاه ! »

سألنى فى لا مبالاة :

ـ « هذا يضيق دائرة الاتهام إلى مائة ممرضة لا أكثر .. ما جدوى هذه المعلومة ؟ »

قلت وأنا أتحسس ما احترق من لحيتى المحيطة بفمى :

ـ لا أدرى .. أحتاج إلى لقاء د.(جونستون) وسؤاله عن بعض النقاط .. »

★ ★ ★

لم تكن العيادة النفسية تؤدى عملاً نشطًا فى (سافارى) ..

إن عيادة الأمراض النفسية تحتاج إلى مستوى اجتماعى يحقق الحاجيات الأساسية ومترف نوعًا ، وهو أمر عسير أن يتحقق فى (أنجاونديرى) .. فالسود الفقراء يسمون الأمراض النفسية باسم يختلف .. هو (داوا) - السحر - أو مسّ الشياطين ..

وباختصار شديد لم يكن (جونستون) يتعامل مع الحالات النفسية إلا فى أعتى صورها : الجنون .. ولم يكن يرى كثيرًا من الاعتلالات البسيطة مثل الاكتئاب والوساوس والهستيريا ..

كان انجليزيًا راقيًا مهذبًا .. أميل إلى الصلع .. له عينان زرقاوان لا يمكن الإمساك بهما ، لأنهما تدوران كفأرين حبيسين ..

حكيت له - فى الصباح - كل شىء عن قصة الحريق .. ثم سألته عن تصوره لشخصية من يفعلها ..

قال د.(جونستون) بلهجته البطيئة :

- « هل أنت متأكد من وجود مجنون حرائق ؟ ربما كان للأمر منفعة مادية مؤكدة .. على غرار

إغلاق وحدة (سافارى) أو إثارة الذعر فيها .. وعندها لن يكون رجلك مجنونًا .. »

قلت وأنا أتحسس ما احترق من لحيتى (وهى هواية صارت محببة لى) :

- « كل شىء يوحى بجنونه .. فلا يوجد نفع مادى واضح من إغلاق وحدة (سافارى) .. لن يستفيد أى طرف .. »

- « هل يمكن إدراج احتمال الانتقام ؟ »

- « يصعب إيجاد سبب للانتقام منى ومن (برنادت) .. ومن (كولو) ومن غرفة العمليات .. ومن المعمل .. لا شىء يجمع هذه الأطراف معًا سوى الجنون .. »

ابتسم لتفسيرى .. وقال :

- « ليكن .. لو افترضنا أن رجلك هذا مجنون حرائق ، فمن السهل أن نحدّد صفاته .. كان هناك قاتل تتابعى اسمه (زودياك) فى أمريكا .. وقد لجأ البوليس إلى عالم نفسى كى يحدّد صفاته .. وكان التحديد النفسى دقيقًا جدًا إلى حدّ أن (زودياك) انتحر حين قرأ التحليل فى الصحف(*) ! »

ثم فتح أصابع يده وراح يعدّ عليها الاحتمالات :

- « أولاً : هذا المجرم يبدو متزنًا وطبيعيًا جدًا ..

(*) حقيقة ..

ثانيًا : هو إنسان مُحبَط إلى أقصى حدّ ويشعر بأنه خُدِع .. وهو شعور عام لدى مجانين الحرائق .. ثالثًا : هو مؤمن بأنه أذكى من الآخرين وأقدر .. وبالطبع يعانى شعورًا بالاضطهاد وأن أحدًا لم يفهمه .. »

سألته وأنا أشعر بأنه لم يضف جديدًا .

ـ « ها هو رجل ؟ »

ـ أكثر هؤلاء ـ مجانين الحرائق ـ يكونون من النساء .. وعلى كل حال أنت تعرف ارتباط النار الحميم بالمرأة فى علم النفس .. وفى الأدب الشعبى يغلب الظنّ أن النار أنثى .. »

عدت أسأله وأنا أدوّن بعض النقاط :

ـ « وهل مجنون الحرائق ينتقم ممن يكرههم ؟ »

ـ « ليس بالضرورة .. أحيانًا ينتقم ممن يحبهم ! فهو يشعر بأن ميله إليهم لون من الضعف .. ومعنى إحراقهم هو حرق سبب ضعفه .. »

صافحته فى حرارة .. وانصرفت راضيًا .. فهو لن يعرف أبدًا إلى أى حدّ قد ساعدنى ..

★ ★ ★

بحثت عن ورقة فلم أجد إلا وصفة دواء قديمة ، كُتب على طرفها الأيمن شعار (وحدة سافارى) .. ورحت أرتب أفكارى :

إن المشتبه فيه فى إشعال الحرائق هو :

١ ـ غالبًا امرأة .

٢ ـ متزنة وطبيعية أو هكذا تبدو .

٣ ـ مُحبَطة وتشعر بالخديعة والاضطهاد .

٤ ـ تؤمن بذكائها الخاصّ .

٥ ـ تحبنى وتحب (كولو) و(برنادت) أو تكرهنا جميعًا !

٦ ـ تستطيع فتح غرفة العمليات رقم (٩)

٧ ـ تستطيع فتح غرفتى وغرفة (برنادت) وغرفة (كولو) .

٨ ـ تعرف أن فريق المعمل سيغادر المعمل فى العاشرة صباحًا (هذا سهل) .

٩ ـ تملك خبرة ما فى الاختراع .

١٠ ـ تعرف أن (كولو) ينام بتأثير الدواء المهدئ .

أدخلت هذه المعلومات إلى الكمبيوتر الموجود فى ذاكرتى .. ورأيت علامة (المعالجة) كما يحدث فى خرائط التدفق التى يرسمها المبرمجون .. ثم علامة (الإخراج) .. وقرأت الاسم ملهوفًا لأعرف المشتبه فيه رقم واحد .. الاسم هو ....

بالطبع .. كنت أتوقع هذا منذ فارقت (جونستون) ..

★ ★ ★

الخاتمة ..

دخلت على (إيرين ماكالستر) حاملاً ديوان (شيلى) إياه ..

سألتنى وهى تفرغ من إفطارها وتضع الصينية جانبًا :

- « هل فرغت منه بهذه السرعة ؟ »

قلت لها وأنا أضع الديوان على (الكومود) :

- « لم أحب سوى قصيدة (الأرض الخراب) .. »

قالت فى رضا :

- « إنها من أجمل قصائده .. وتعكس أسلوبه بدقة .. »

قلت لها وأنا أنظر إلى ساعتى :

- « إن إجراءات إخلاء الوحدة قد بدأت .. ماذا تنوين عمله ؟ هل ستغادرين البلاد أم تدخلين مستشفى فى (ياوندى) ؟ »

هتفت مبهوتة :

- « لا .. ليس بهذه السرعة .. إن الأمور لم تصل لهذه الخطورة بعد .. »

- « بل وصلت .. لقد احترق (كولو) أمس ! »

- « لا .. لا تقل هذا ! »

- « أنت تعرفينه بالتأكيد .. كنت تتبادلين الرسائل معه .. وأمس سألتنى عنه .. »

غطت وجهها غير مصدقة .. فلم أهتم كثيرًا بالتخفيف عنها .. وأردفت وأنا أتهيأ للانصراف :

- « نحن فى قاعة المؤتمرات الآن .. كل العاملين فى (سافارى) سيجتمعون بالمدير ليشرح لنا قراره هذا .. سيدوم الاجتماع ساعة ثم أعود إليك .. »

وغادرت الحجرة وهى ما زالت ترمقنى بعينين غائمتين ..

★ ★ ★

واتجهت إلى مكتب المدير ..

كان جالسًا وأمامه (برنادت) ، وقد فرغ من الاعتذار لها .. بدا لى وجهها أكثر إشراقًا وأملاً ..

ومناشدًا قال لها :

- « أرجو أن تقدمى لى رجوعك عن الاستقالة خلال ساعة .. »

قالت له فى شىء من المرح :

- « دعنى أفكر فى طلب زيادة أجرى أولاً .. »

ثم إن المدير عقد أصابع يديه تحت ذقنه ، ونظر لى متسائلا :

- « ماذا يا (علاء) ؟ هل ألقيت بالطعم ؟ »

- « نعم .. وأرجو أن يكون (موزينجا) هناك الآن .. »

- « لم أجعله يذهب .. فرائحة عطره ستفضحه .. لكنى أرسلت ثلاثة رجال بلا رائحة .. »

- « عظيم .. »

ومرّ ربع ساعة من الانتظار الثقيل ...

وفجأة انفتح الباب ودخل (موزينجا) مع ثلاثة آخرين يبدو من ضخامة أجسادهم أنهم جميعًا رجال أمن .. وكانوا يحيطون بعاملة إفريقية بدت كالأرنب المذعور ..

قال (موزينجا) وهو يتنهد كأنما قام بعمل مذهل :

- « أخيرًا يا سيدى .. كانت فى طريقها لإشعال حريق فى المكتبة .. لقد وجدناها على الباب ومعها .. هذه .. »

ولوّح بالقنبلة الزمنية البدائية إياها ..

صرخت العاملة محاولة الإنكار .. لكن المدير تجاهلها تمامًا وعاد يسأل (موزينجا) :

- « وكانت خارجة من الغرفة إياها ؟ »

- « نعم يا سيدى .. ثم اتجهت للمخزن .. وخرجت منه وهى تحمل الساعة والقماش المبلل بالبنزين .. »

- « حسن .. والآن أكملوا ما بدأتموه .. »

★ ★ ★

وسمعت (إيرين) صوت الدقات على الباب ..

صاحت من موضعها فى الفراش :

- « ادخل .. »

واتسعت عيناها حين رأتنى ورأت المدير والعمالقة الأربعة السود ، وحين شمت رائحة عطر (موزينجا) الخانقة ..

هتفت دون فهم :

- « ماذا هناك ؟ ما الموضوع ؟ »

قال لها المدير فى تؤدة بلغته الإنجليزية الرديئة جدًّا :

- « لقد قبضنا على (ناديا) .. هل هذا يكفى يا مس (ماكالستر) ؟ »

صرخت وهى تتحفز فى الفراش :

- « إنها كاذبة ! أنا لم أطلب منها شيئًا .. »

- « وهل اتهمك أحد بشىء ؟ الواقع أنك تعترفين

يا آنستى .. والإنكار لن يفيد .. (ناديا) اعترفت بأنها أشعلت كل الحرائق السابقة مقابل أجر كنت تدفعينه لها بانتظام .. »

قلت أنا وقد استندت إلى الباب لأبدو عنيدًا شرسًا :

ـ « هذا يفسر الأمر .. فالعاملات يستطعن فتح كل الأبواب بمفتاح الـ (ماستركى) الذى تحتفظ به رئيستهن ..

وقال المدير :

ـ « أما أنت فتملكين الحافز النفسى المناسب .. كراهيتك للوجود .. إحساسك بالظلم والغبن .. الرغبة فى عقاب نفسك بالخلاص من كل من تحبين أو تشعرين بارتياح له .. »

احمرت عيناها كالمحمومين فتألقتا فى وجهها المريع .. وصرخت :

ـ « أنتم مجموعة من المخابيل ! »

قلتُ دون أن أعلق :

ـ « كنت تخبئين أدوات العمل فى أماكن متفرقة تحرصين على تغييرها .. ويبدو أن غرفة د. (برنادت) كانت واحدة من هذه الأماكن .. ربما لم تريدى أن تورطيها لكنه حدث على كل حال .. »

ـ « أنتم مجموعة من الحمقى ! »

ـ « بالطبع كنت تعرفين أن (كولو) ينام بفعل القرص المخدر ..

وكانت العاملة تعرف أن هناك اجتماعًا لطاقم المعمل فى العاشرة صباحًا .. وهأنتذى قد بلعت الطعم وحسبت أن اجتماع (سافارى) سيتم الآن .. لهذا قررت انتهاز الفرصة وأصدرت تعليماتك للعاملة كى تعدَ لحرق المكتبة .. »

ـ « أنتم مجموعة من البلهاء ! »

قالتها وقفزت من الفراش .. لقد شفيت من شللها الهستيرى بسرعة البرق كما هو واضح ..

وفى ثوان كانت قد ركلت (موزينجا) فى بطنه ، وانشبت أسنانها فى يد المدير ، ثم غرست أظفارها فى وجهى ..

كانت نمرة عاتية .. وقد احتاج الرجال إلى جهد جهيد كى يمسكوا بمعصميها .. فراحت تزأر وترغى وتزبد ، حتى إن الدنو منها كان يحتاج إلى شجاعة خارقة ..

قلت لـ (موزينجا) وأنا أتحسس وجهى الدامى :

ـ « حذار أن تفلت منكم .. فهى أقرب إلى نمر جريح .. »

أطلقتْ بصقة فى اتجاهى ـ لم تصل لى لحسن الحظ ـ وهتفت فى غلّ :

ـ « نعم ! أنا أكرهكم وأكره هذه الحياة كلها .. وما كان ليرضينى سوى أن أراكم جميعًا وقد تحولتم إلى رماد .. »

قلت لها وأنا ابتعد عن مجالها أكثر :

ـ « حقا .. لقد أجدت رسم دور الفتاة الشاعرية كسيرة القلب .. لكنى بدأت أتساءل عن الحقيقة حين قلت لك إن (الأرض الخراب) قصيدة لـ (شيلى) ووافقتنى على ذلك .. حتى أنا أعرف أنها قصيدة لـ (إليوت) .. وواضح من هذا أنك لا تهتمين بالشعر أبدًا .. »

قال المدير للعمالقة السود :

ـ « إذن خذوها .. ولتتصل بأصدقائك فى الشرطة يا (موزينجا) .. »

وتحرك الجميع خارجين من الغرفة ...

★ ★ ★

قالت (برنادت) وهى تلتهم شطيرتها :

ـ « كان لا بد من الشك .. وحين أفكر فى الأمر بتعقل أجد أن هذا كان عادلاً .. وما كان بوسع المدير اتخاذ قرار آخر .. »

قلت لها فى خجل :

ـ « حتى أنا شككت فيك بعض الوقت .. »

ـ « لا ألومك على هذا .. »

ونظرت إلى ساعتى ..

هذا هو الوقت الذى اعتدت المرور فيه على عنابر (الإيدز) .. هناك مريضان يهمنى بصفة خاصة أن أسمع منهما ..

ـ « بعد إذنك .. لقد حان الوقت .. »

ونهضت قاصدًا العنابر المذكورة حيث المحكوم عليهم بالموت ..

لقد مات (كولو) .. لكن هناك عشرين (كولو) آخر ينتظر من يصغى لكلماته فى اهتمام ، وينزع لفافة التبغ من بين أنامله ..

لقد أخذوا (إيرين) .. لكن هناك مائة (إيرين) أخرى تنتظر من يقول لها إنه مهتم بها .. وإنها ما زالت جميلة ..

لقد انتهت ساعات مريرة .. لكن هناك ساعات مريرة أخرى تنتظر كى نواجهها وننتصر عليها مادمنا أحياء ..

★ ★ ★

كانت (إيرين) جالسة فى سيارة الشرطة الكاميرونية ، ترمق وجوه الناس المتسائلة ، وترى انعكاس الضوء على وجوههم ..

كانت تعرف أنهم لن يسجنوها ..

حتمًا سيأخذونها إلى مصحة نفسية .. عندها سيكون الفرار ممكنًا .. وستنعم برؤية النار من جديد ..

متى ؟ وكيف ؟ أسئلة كثيرة تنتظر الإجابة ..

لكن الإجابة على أسئلة كهذه ليست عملنا فى (سافارى) ..

د. (علاء عبد العظيم)

أنجاونديرى



★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

رقم الإيداع : ٢٤٨٧

الرقم الدولى : ٩٧٧ ـ ٢٦٩ ـ ٣٠٨ ـ ٢



سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حياً ويظل طبيباً

الحريق

إن لدى (سافارى) أشياء عديدة تحسدها عليها المراكز الطبية الأخرى ؛ فلديها أجهزة حديثة ، وطاقم أطباء ممتاز ، وطاقم تمريض نشط .. ومجنون بإشعال الحرائق ! إن هذا يضفى إثارة عظيمة على الحياة .. حين يشتعل الحريق فى أى مكان ، وفى أى وقت .. ليتحول أى إنسان إلى كومة من الرماد !



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم
قصة الموت

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع